

العَرَبُ  
وَإِسْرَانٌ

وهم الصراع وهم الوفاق

الطبعة الأولى  
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

جيتري جستجو قوق الطبع معتمدة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٣٣١٥٧٨ - ٣٣٤٨١٤  
برلين : شرق - تكسي : ٩٣٦٩ SHROK UN  
بيروت : ص. ب : ٨٠٢٤ - هاتف : ٣١٥٨٦٩ - ٣١٦٧٦٥ - ٨١٧٢١٣  
برلين : دلسرول - تكسي : SHOROK 20178 LE

أزمة الخليج

العرب

وإيران

وهم الصراع وهم الوفاق

فهمى هويدى

دار الشروق

**الملف للفنان حلمى التونى**

## تقديم

في زماننا لا تحتاج إلى « مرافعة » من أي نوع لكي تكسب قضية التعامل مع الآخر ، من أجل مصلحة مشتركة ، ولكي تصنعوا معا علاقه أفضل ، هي خطوة باتجاه صياغة العالم الأفضل . إذ غدت تلك قضية محسومة ، وواحدة من مسلمات الاتماء إلى فكر هذا العصر ولغته .

غير أن ثمة مسلمات كثيرة ما زالت موضع جدل ومحل « اجتهد » في الزمن العربي ، ليس فقط من جانب أهل السياسة ولكن أيضا من لدن أهل الفكر والرأي . ومسألة العلاقات العربية الإيرانية نموذج لذلك الخلل الذي ندعوه . إذ ظل الملف مغلقا طيلة سنوات عشر على الأقل ( من سنة ٨٠ إلى ٩٠ ) ، وكان مجرد الحديث عنه أو الاقتراب منه عملا محظورا أو مشبوها . والذى أعنيه بطبيعة الحال هو الحديث المجرد عن الهوى النابع من مصلحة الملة والأمة القاصد وجه الله وحده . أما حديث الميل مع الريع والالتزام « بالخطأ » والمزايدة عليه ، « فالحرية » فيه مكفولة ومطلقة ، حيث لكل صاحب صوت أن يسب ويتهم كيفما شاء ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا بطبيعة الحال !

لى جهد سابق في هذا المجال كان دون طموح هذا الكتاب وغايته . فعندما صدر لي في عام ١٩٨٧ كتاب « إيران من الداخل » - عن مركز الأهرام للترجمة والنشر - كان المناخ غير مهياً لحديث من أي نوع عن الوفاق الإيراني العربي ، إذ كان الرئيس العراقي الذي بادر من جانبه باعلان الحرب على إيران سنة ٨٠ ، قد أواهم العرب بأنه يدافع عنهم ، وأن هذه معركتهم التي شاء قدره أن يخوضها نيابة عنهم . ولم يكن هذا هو أغرب مافى الأمر ، لأن الأغرب هو أن الآخرين صدقواه وشايروه وساندوه !

كان همى في كتاب « إيران من الداخل » هو تمكين القارئ من محاولة فهم الذي يحدث في إيران بنهج مختلف عن لغة الخطاب الذي ساد آنذاك ، وبلغة غير الذي فرضها « الخط » المرسوم . ورغم أن هذه كانت دعوة الكتاب الأساسية ، فإن مجرد صدوره سبب مشكلات عديدة ، لي وله .

كان الاتهام هو رد الفعل الأول . إذ قيل إنه منحاز لإيران ، بل وممول إيرانيا ، رغم أن الجهات المختصة في طهران رفضت التصريح بترجمته إلى الفارسية بعدما تلقت تقريرا يقول إنه كتاب يسيئ إلى الثورة ! - وابلغت القاهرة من جانب مستشار لأحد الحكماء العرب ، في حديث ودى ! أنه ما كان ينبغي أن يصدر مثل هذا الكتاب في مصر « في ظروف المعركة الصعبة التي تواجهها الأمة » . وصدر الكتاب وقتذاك في كافة البلدان العربية ، باستثناء البحرين . وعندما

صرح بدخوله في اليمن ، فإن السفير العراق تدخل لدى السلطات المعنية ، فسحب التصريح ، وصودرت الكمية المعروضة في السوق عنه ، من مكتبات صنعاء وتغزى . وكانت تلك المصادر أفضل خدمة أديت للكتاب ، لأنه هرب إلى كل مكان حتى طبعت منه ثلاثة طبعات ، ناهيك عن تزويره الذي تم في بيروت !

حدث ذلك كله ، فقط لأنني دعوت لأن «فهم» الصورة على نحو مختلف - ولم ادع بأى صورة لأن «نفعل» شيئاً . إذ كان الخوض في هذا الباب ضرب من المستحيل ، وتناوله هو من قبيل «الشرك» في السياسة .

خلال تلك السنوات الثلاث التي مرت تغيرت أمور كثيرة ، وكان الرئيس العراقي ذاته هو الذي نسف كل دعاواه في الحرب ، واسقط الغشاوة التي فرضها على عيون وعقول كثيرة . وصار بوسعنا أن «نجتر» وندعو إلى التفاهم فضلاً عن الفهم ، بين العرب وإيران ! والأمر كذلك ، فهذا الكتاب هو «الفصل الناقص» أو هو التكملة التي كانت مؤجلة من الكتاب الأول «إيران من الداخل» .

وليس الرئيس صدام حسين هو صاحب «الفصل الأوحد» في افساح المجال لصدور هذا الكتاب . فهناك فضل لآخرين ينبغي ذكره ، بل كان ينبغي أن يشار إليهم قبل الرئيس العراق وما أسداه ، لسبب بسيط هو أنه ارتكب جرمًا رئيسيًا رغم أنه فضلاً لم يقصده ، أما الآخرون فقد كانوا ساعين إلى الفصل من البداية .

فقد كلفني « مركز دراسات العالم الإسلامي » في مالطا ، في خريف ٨٩ ، باعداد بحث عن « العرب وإيران » ، ليقدم إلى ندوة التي عقدها بطرابلس تحت عنوان « العلاقات العربية الإسلامية » ، في منتصف أكتوبر ٩٠ . وفي وقت لاحق ، بعد غزو العراق للكويت اقترح على الأستاذ محمد المعلم مؤسس دار الشروق أن اسمه بكتاب حول ذات الموضوع ، في السلسلة التي انتوت « دار الشروق » اصدارها بمناسبة أزمة الخليج . الأمر الذي حرك لدى الرغبة المحبوبة في كتابة الفصل الناقص في « إيران من الداخل » والانتقال به من الدعوة إلى الفهم ، لطور الحث على الفعل .

لقد قدم « بحث العرب وإيران » في حينه إلى ندوة « طرابلس » بالجاهيرية الليبية ، وبذلت ما وسعني من جهد بعد ذلك لاكمال بنائه ، ومن ثم تطويره ، ليخرج عن هذه الصورة التي بين يديك . وعاني في المحاولة استاذنا الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد ، الأستاذ بجامعة عين شمس ، وأحد شيوخ الدراسات الفارسية في مصر ، حيث أمنني بنصحه وبما احتجت من مراجع لم تتوفر لي ، فأنسد إلى بذلك صنيعاً واجب الذكر والشكر .

وبطبيعة الحال ، فإن الحمد والشكر لله أولاً وأخيراً .

### **فهمني هويدان**

القاهرة : ٢٥ ربيع الثاني ١٤١١ هـ  
١٢ نوفمبر ١٩٩٠ م

## (١) استدعاء بأمر الغزو

من مفارقات الأقدار أن إيران عندما كانت تتأرجح لديها الرغبة في التحرك خارج حدودها واثبات حضورها في المنطقة العربية ، أدار لها الجميع ظهورهم ، باستثناء دولتين عربيتين أو ثلاث - بينما عندما اضطرت إلى الانكفاء على ذاتها ، والانصراف إلى ترميم البيت من الداخل - إثر جراح حرب السنوات الشهانى - عندئذ بادر الجميع إلى خطب ودها بغير استثناء في العالم العربي !

من المفارقات أيضاً أن الرئيس العراقي صدام حسين ، الذي أراد بالحرب التي شنها سنة ٨٠ ، ضمن ما أراد ، حصار إيران وتقليل دورها ، هو ذاته الذي فتح الباب لاستدعاء الدور الإيراني ، بالغزو الذي قام به ضد الكويت سنة ٩٠ . بل كان هو نفسه أول المبادرين إلى طرق أبواب طهران وغوايتها من خلال اقتراح إنشاء مجلس للتعاون الاقتصادي - إيراني عراقي - للتتفاهم حول إدارة شئون الخليج ، باعتبار أن البلدين هنا أكبر وقوى دول المنطقة . وبعدما أبلغ الرئيس العراق طهران بموافقته على جميع الشروط المطلوبة لاقرار السلام بين البلدين ، فإنه تعهد بتعويض إيران عما أصابها خلال سنوات الحرب ،

بمبلغ ٢٥٠ بليون دولار ، مقابل أمرین : إن تبقى إیران على الحياد ازاء عملية الغزو ، وألا تلتزم بالحصار الاقتصادي التراما جادا .

اضافت التقارير التي خرجت من طهران أن الأطراف العربية الأخرى علمت بعرض الرئيس العراقى ، فكانت زيارة وزير خارجية الكويت - الشيخ صباح الأحمد - في الخامس والعشرين من أغسطس ، أى بعد الغزو بثلاثة أسابيع ، وأبدى استعداد الكويت لتعويض إیران عن جميع الأضرار التي لحقت بها في حربها مع العراق . وعقب هذه الزيارة تمت اتصالات بين المؤسسات التجارية الكويتية في لندن ، وبين السفارات الإيرانية في أوروبا الغربية ، للبدء في خطوة عملية تستهدف استثمار بعض رءوس الأموال الكويتية في مشروعات إعادة اعمار إیران ، بدءاً بالمناطق الشمالية التي اصابتها الزلازل هذا العام (١) .

وقد نشرت كافة الصحف وقتذاك أن وزير الخارجية الكويتي اعتذر للمسؤولين في طهران عن مساندة بلاده للعراق أثناء الحرب - وكان هذا الاعتذار والظروف التي احاطت به . بعثة رد اعتبار كاف لایران ، لابد انه اشعر قادتها بالرضى والغبطة .

ولم تكن الكويت وحدها هي التي خاطبت طهران ، وإنما ذهبت دول مجلس التعاون الخليجي إلى ما هو أبعد . إذ وجهت سلطنة عمان الدعوة إلى إیران للحضور كمراقب في مؤتمر القمة الخليجية الذي انعقد في قطر في الثاني والعشرين من شهر ديسمبر

( ١٩٩٠ ) . وهو المجلس الذى تشكل أساسا ليكون جبهة خليجية ضد إيران ، في أعقاب الحرب التى شنتها العراق فى سنة ٨٠ م .

في الوقت ذاته فإن دولة الإمارات طورت علاقاتها مع إيران بصورة ملحوظة . إذ زارها فى شهر نوفمبر ( ٩٠ ) وفد إيراني كبير برئاسة وزير « جهاد البناء » - غلام رضا قروزش - ضم نخبة من مثلى الوزارات الإيرانية ، ورئيس اللجنة الزراعية بمجلس الشورى الإيراني . وحسبما نشرت صحيفة « الاتحاد » الظبيانية ( عدد ٢٧ نوفمبر ) نفلا عن وكالة أنباء الإمارات فإن الوفد الإيراني بحث مع المسؤولين في دولة الإمارات « دعم العلاقات الثنائية بين البلدين في المجالات الزراعية والثروة الحيوانية والسمكية .. وتم تبادل الرأى بين الجانبين حول خلق قاعدة للتعاون المثمر وتبادل الخبرات الفنية بما يحقق المصلحة المشتركة ، في إطار علاقة الصداقة التاريخية القائمة بينهما » .

على صعيد آخر ، فإن مختلف الدول العربية الأخرى مدت خطوط الاتصال مع طهران ، بصورة أو أخرى . وكانت أبرز الخطوات في هذا الصدد هي ذلك التعاون الذى افتتحت أبوابه بين إيران وكل من اليمن والسودان . فقد تشكلت لجنة وزارية يمنية إيرانية لترتيب ودفع علاقات البلدين إلى الأمام ، وزار الدكتور عبد الكريم الارياني وزير خارجية اليمن طهران في شهر نوفمبر لهذا الغرض . وبعد أيام من هذه الزيارة وقعت إيران اتفاقا للتعاون المشترك مع حكومة

السودان . وشمل الاتفاق مجالات عديدة من مشروعات الأمن الغذائي إلى مشروعات النقل والمواصلات . وقال مسئول سوداني أن الهلال الأحمر الإيراني سيشنئ لأول مرة منذ قامت الثورة الإيرانية مكتباً في الخرطوم لتنسيق التعاون الصحي ، كما أن وزارة «جهاز البناء» الإيرانية سيكون بها مكتب آخر لمتابعة مشروعات الإنشاء والعمارة . وسيتم تكوين غرفة تجارية وصناعية مشتركة بمشاركة القطاعين الخاص والعام في البلدين . وكانت زيارة رئيس مجلس ثورة الإنقاذ في السودان – الفريق عمر البشير – إلى طهران في الحادى عشر من شهر سبتمبر إعلاناً واضحاً عن أن علاقات البلدين قد دخلت منعطفاً جديداً ، لافتاً للنظر .

توازى ذلك مع عقد أول وأكبر مؤتمر فلسطيني في طهران في الرابع من ديسمبر ٩٠ ، بمناسبة مرور ثلاث سنوات على الانتفاضة . وكانت رسالة إيران التي بعثتها من خلال المؤتمر هي من قبيل اثبات الحضور في ساحة القضية الأولى للأمة العربية والإسلامية .

في ذات الاتجاه ، فإن تونس أعادت العلاقات مع إيران ، وبادرت الأردن إلى إرسال أكثر من وفد برلماني وشعبي إلى طهران ، وهي التي حتى الجميع من قبل على قطع العلاقات مع حكومة الثورة الإسلامية . وجرت اتصالات مصرية إيرانية – غير مباشرة – أدت إلى الإفراج عن جميع الأسرى المصريين الذين كانوا محتجزين في إيران منذ الحرب . واستقبلت طهران لأول مرة وفداً إسلامياً

برئاسة الدكتور محمد أحمد الشريفي أمين جمعية الدعوة الإسلامية الليبية . وعقد وزيرا الخارجية الإيرانية وال سعودي أكثر من اجتماع لتسوية ما هو معلق من مشكلات بين البلدين .

هكذا ، فربما جاز لنا أن نقول أن أبواب العالم العربي انفتحت بدرجات متفاوتة أمام إيران بعد الاجتياح العراقي للكويت ، وإن طرق الحصار الذي فرض عليها بعد العام الأول للثورة قد انكسر . من ناحية ثانية ، فإن الغرب بادر إلى محاولة كسب إيران ، وتشجيعها على الالتزام بالمقاطعة الاقتصادية التي قررها مجلس الأمن . واتاح لها الفرصة للاستفادة من ورقة جديدة راجحة وهي موقعها الاستراتيجي في أزمة الخليج ، بعددما كانت ورقتها الرابحة الوحيدة في السابق هي امتلاكها للبترول .

لقد اعادت بريطانيا علاقاتها السياسية المقطوعة مع إيران ، بينما فتحت فرنسا صفحة جديدة مع طهران وصفتها صحيفة «لوموند» بأنها «بداية شهر عسل اقتصادي بين البلدين» . فبعدما سوّيت المشاكل المعلقة ، أوفدت فرنسا وفداً صناعياً على المستوى في مناسبة افتتاح معرض إيران الدولي في شهر أكتوبر ١٩٩٠ م . ووقع مصرف «سوسيتيه جنرال» عقداً مع الحكومة الإيرانية لتمويل مشاريع بتروكيماوية من الخطة الخمسية بمبلغ ٢,٢ بليون دولار أمريكي . كما إن شركتي «تكنيب» و «E.T.P.M.» وقعتا عقداً لإعادة إعمار بجمع بندر خمیني للصناعات البتروكيماوية وأجزاء من ميناء «خرج»

البترولى . وف شهر ديسمبر قام الرئيس الإيرانى هاشمى رفسنجانى بتدشين مصنع سيارات «بيجو ٤٠٥» الفرنسي فى إحدى ضواحي طهران .

وبتشجيع من الولايات المتحدة قرر البنك الدولى إعادة العلاقات المالية مع إيران ، وكانت مقطوعة منذ سنة ٧٦ بسبب اعتراف البنك على سياسة إيران الزراعية . وفي ظل الوضع المستجد ، فإن البنك قرر منح إيران قرضاً قيمته ٣٠٠ مليون دولار لاعادة بناء المناطق التي تكبت بالزلزال . واعتبر هذا المبلغ خطوة أولى على طريق المساعدة الدولية ، لاعادة اعمار إيران .

من ناحية ثالثة ، فإن إيران استفادت من شح البترول وارتفاع اسعاره الدولية ، فضاعفت من إنتاجها إذ بقدورها ان تنتج ثلاثة ملايين برميل يومياً . واستغلت مقاطعة العراق ووقف انتاج الكويت . وسارعت ببيع البترول للليابان ، وأخذت تفاوض دول أوروبا الشرقية التي قلل امدادها بالبترول السوفيتى ، واتفقت مؤخراً على بيع عشرة ملايين طن سنوياً إلى تشيكوسلوفاكيا .

إذاء ذلك . فمن الطبيعي أن تتضاعف موارد الخزينة الإيرانية ، التي قدر دخلها من النفط في عام ٨٩ بمبلغ ١٥ بليون دولار ، ويقدر الخبراء أن ذلك الدخل سيزيد مرتين ونصفاً على الأقل ، في ظل الأوضاع التي جدت بعد الغزو . وهو تطور مهم لا بد ان يحدث نوعاً من الانفراج الاقتصادي في الداخل ، فضلاً عن انه يوفر تمويلاً معقولاً

مشروعات اعمار البلاد . والأهم من ذلك أنه يمكن إيران من توسيع نطاق اتفاقاتها الصناعية والاقتصادية مع الدول الخارجية - التي تطمحها موارد إيران على أن ماتقدمه من سلع أو قروض ، سيمت الوفاء به . بلا مشاكل .

إذاء ذلك كله ، فنحن نفهم تماما قول الخبر الاقتصادي الفرنسي جان لوى تريه : ان أزمة الخليج كانت نعمة هبطت من السماء على من يعاني من المشكلات والعزلة ، الاقتصادية والسياسية

### الشرق الأوسط وأعمدته الثلاثة

لقد ادرك الجميع كم هي مهمة إيران ، قبل الغزو وأثنائه ، واحسب أنهم يدركون أيضا ان إيران ستتصبح أكثر أهمية بعد الغزو ، أي كانت المدة التي س يستغرقها . وان شئنا أن نعود إلى الحقائق الأساسية في الجغرافيا السياسية لمنطقة الشرق الأوسط ، فاننا ننبه إلى أنه بات مستقرا في مختلف الدراسات الاستراتيجية ان للشرق الأوسط ثلاثة أعمدة أو ركائزه ، هي مصر وتركيا وإيران . (تعداد كل دولة يتجاوز خمسين مليونا من البشر ، ولكل منها موقعها الاستراتيجي الحاسم ومصادر ثروتها المتميزة ورصيدها التاريخي المعتر) . غير أن أعمدة منطقة الخليج بوجه أخص كان ينظر إليها دائما على أنها - أيضا - ثلاثة تمثل في : إيران والعراق وال سعودية . (لاحظ ان إيران قاسم مشترك في الدائرين) وهو تقدير لعبت فيه الجغرافيا دورا أساسيا . إضافة إلى

القدرة العسكرية والكثافة السكانية .

وإن شئنا الدقة فقد نقول إن المنافسة العسكرية - استعراض القوة . كان قائماً بين إيران والعراق . بينما كانت السعودية وما زالت تمارس نوعاً من النفوذ السياسي ، لا تدخل القوة العسكرية في موازيته .

في إيران الشاه انتهزت فرصة انسحاب القوات الإنجليزية من الخليج سنة ١٩٧١م ، واستولت على الجزر العربية الثلاث التابعة لدولة الإمارات . والعراق انتهزت فرصة العداء الغربي والأمريكي خاصة للثورة الإسلامية في إيران ، فسارعت إلى شن الحرب عليها سنة ١٩٨٠ . حتى انهكتها عسكرياً ، وخرجت بغداد من الحرب قوة عسكرية ثابتة تفوقها . الأمر الذي أعطى القيادة العراقية ثقة زائدة شجعتها على غزو الكويت فيما بعد .

غير أن الخطأ الفادح الذي ارتکبته القيادة العراقية أنها لم تدرك أنها إذا كانت قد خرجت سليمة من « حفرة » الحرب ضد إيران ، إلا أن خروجها سالمة من « بئر » غزو الكويت محل شك كبير . بل إن ثمة شبه اجماع على أن القوة العراقية تصرف بسلوك اقناع الآخرين بأن استعمارها على ذلك النحو خطري ينبغي درؤه . وبالتالي فحال العراق بعد انتهاء مشكلة الغزو لن يكون كحالها قبل الغزو باى معيار .

وليس لنا أن ندخل في تفاصيل « السيناريوهات » المحتملة في هذا الصدد - وهل سينسحب العراق بالتفاهم وفي ظل تسوية سلمية ، أم

أنه سينسحب بالقوة العسكرية ، أم أن المشكلة ستتحول على نحو مغاير ، أثر انقلاب داخلي أو تصفيية للرئيس العراقي . وإذا ما حدثت المواجهة العسكرية ، فهل لن يكون هناك مفر من تدمير القوة العسكرية العراقية تماماً ، أم أن التدمير سيكون جزئياً ، لكسر الشوكة واثبات العبرة . ليس لنا ان ندخل في أمثال تلك التفاصيل في سياقنا ، على أهميتها البالغة . لكن الذي نذهب إليه هو في كل الأحوال ، فإن القوة العسكرية العراقية سيتم « تحجيمها » في نهاية المطاف . فالأطراف الدولية المختلفة – العالم الصناعي تحديداً – لن تتحمل استمرار تلك القوة في قبضة قيادة مغامرة وطائشة وسط منابع النفط .. أقول « تحجيمها » قاصداً ، لأن مخططي السياسة في الغرب والشرق ايضاً – ي يريدون – إذا كان لهم خيار – ان يظل للعراق بعضاً من العافية والقوة ، لسبب استراتيجي مهم ، هو الحيلولة دون ان تنفرد إيران بالقوة في منطقة الخليج .

وإذا ما تحقق الذي نتصوره ، فستكون التسليمة ان تصبح إيران هي القوة الأولى في الخليج ، وليس بالضرورة القوة الوحيدة . وذلك أثر تحجيم الدور العراقي ، وخروج القوة العسكرية السعودية من حلبة المنافسة من الأساس ، بل وثبتت حاجة السعودية ذاتها إلى قوة أخرى لحماية أراضيها . إذ رغم الانهك الذي لحق بإيران أيام سنوات الحرب فينبغي ألا يغيب عنها أنها ماضية في إعادة بناء قواتها المسلحة وتحديثها ( تقرير المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية بلندن عن الميزان

ال العسكري للعام ٩١/٩٠ ذكر ان إيران حصلت بعد وقف الحرب ضد العراق على اسلحة سوفيتية متقدمة مثل مقاتلات ميج ٢٩ ودبابات ت - ٧٢ ، كما أنها نجحت في امتلاك وتطوير عدة طرز من صواريخ أرض أرض ) . ولكن هذا ليس كل ما في الأمر ، لأننا يجب ان نضع في الاعتبار عنصر الثقل السكاني في تقدير موازين القوة . فسكان إيران ثلاثة اضعاف سكان العراق على الأقل (إيران ما بين ٥٢ و٤٥ مليونا والعراق ١٧ مليونا) .

مانزيرد ان نخلص إليه هنا هو أنه في كل الظروف وفي أحسن الفروض ، فإن العراق لن يسمح له باستمرار امتلاكه للأسلحة الكيماوية والبيولوجية التي تورق الآخرين - وهي الأسلحة التي رجحت كفته في الستين الأخيرتين للحرب ضد إيران ، بعد ما تكرر استخدامه للغازات السامة بوجه أخص ، ونزع أمثال تلك الأسلحة - التي قد تضيف إليها النووية أيضا - يضع العراق مباشرة في المرتبة التالية من القوة ، بعد إيران . أما إذا لم يكن هناك مفر من تدمير القوة العسكرية العراقية لحل الأزمة الراهنة ، فإن الأمر سيختلف ، ليصبح ميزان القوة في منطقة الخليج لصالح إيران بصورة مطلقة ، وليس فقط بصورة نسبية .

## تركيا وإيران : اللامتنى والمنتمى

ثمة حديث عن دور لتركيا وآخر لإسرائيل . وإذا نعرف ابتداء بالقوة النسبية لإسرائيل ، المستمدă في شق منها من الدعم الامريكي والغرب . إلا أن أحدا لا يستطيع أن يتجاهل عمق الكراهية لإسرائيل في العالم العربي ، وحدية الرفض القوى لدورها من جانب جماهيره ، الأمر الذي يحاصر فاعلية تلك القوة إلى حد كبير . وقد لاحظ الاسرائيليون انفسهم ذلك في الأزمة الراهنة ، وعبر عنه أحد خبراء مركز الدراسات الاستراتيجية في يافا في تقرير نشرته الجيز واليم بوسٌت<sup>(٢)</sup> تحت عنوان : « لامكان لاسرائيل في استراتيجية الولايات المتحدة تجاه اسرائيل » إذا اعتبر ان رفض الدور الاسرائيلي في العالم العربي كان بين الأسباب التي دفعت الولايات المتحدة إلى عدم الاعتداد عليها في حماية مصالح الغرب بالمنطقة – إلا في حدود المعلومات فقط – واضططرتها إلى التعامل المباشر مع الحدث ، من خلال استجلاب القوات العسكرية الغربية إلى الخليج .

و عند المقارنة بين الاثنين – تركيا وإسرائيل – فإن تركيا تصبح في موقف أفضل ، بالدرجة الأولى لأن شعبها مسلم ، ولأن موقفها من العرب لا يتسم بالعداء بأى معيار . فضلا عن ذلك فإن تركيا تحظى بقبول وتشجيع كبار من جانب الولايات المتحدة الأمريكية . ليس فقط لأن تركيا تقدم نفسها باستمرار على أنها دولة غربية ، ولكن أيضا لأن النخبة الحاكمة في انقره اثبتت على الدوام عمق ارتباطها

باليولايات المتحدة الأمريكية منذ عدة عقود . وربما ثبت ذلك بشكل بارز عند اسهام تركيا بقواتها إلى جانب الولايات المتحدة في الحرب الكورية سنة ١٩٥٠ م . حيث كانت تركيا هي البلد الوحيد في «الشرق» أو في العالم الإسلامي الذي أرسل وحدات عسكرية له في تلك الحرب ، اسهمت فيها بقسط ممتاز وتضحيات غالبة .

وف سبيل دفع الدور التركي ابان أزمة الخليج ، فإن الولايات المتحدة قدمت لها خلال الشهرين الأولين من الأزمة مساعدات ضخمة تمثلت فيما يلى :<sup>(٣)</sup>

- اعتمادات مالية وصلت قيمتها إلى بليون دولار من بنك الاستيراد والتصدير الحكومي لتمويل إنتاج مشترك لاثنتي طائرة هليكوبتر ، بالتعاون مع شركة «سيكورسكي» .
- ٨٠ طائرة حربية من طراز (ف - ١٦ - سى) اضافة لاتفاقية سابقة توصل لها الجانبان في مطلع سنة ١٩٩٠ م ، وتنصمن ١٦٠ طائرة من الطراز نفسه - وتشير مصادر مطلعة إلى أن تركيا تسعى لمضايقة العدد الذي حصلت عليه بعد أزمة الخليج ، ليصبح مجموع ماتملكه من تلك الطائرات المتقدمة ٣٢٠ طائرة ، وهو أكبر عدد من هذا الطراز لدى دولة في العالم !
- موافقة أولية من الولايات المتحدة الأمريكية بتمويل خطة كانت قد اعدتها تركيا قبل ستين (١٩) ورفضتها امريكا ، لتعديل

الجيش التركي واسلحته الحربية تصل كلفتها الإجمالية نحو أربعة مليارات دولار

- كسبت موافقة امريكا على التدخل لدى صندوق النقد الدولي ، لرفع القيود عن قروض لها جمدتها إدارة الصندوق في وقت سابق تبلغ قيمتها ١٤ بليون دولار .
- حصلت على وعد من حكومة الرئيس بوش لبذل مساعي جديدة وقوية مع السوق الأوروبية المشتركة ، لتقوم بتوسيع نطاق تعاملها مع تركيا ، بما في ذلك اجراءات الارتباط الاقتصادي والعسكري مع تركيا . وقد قامت امريكا فعلاً ببذل مساعدتها ، فاعادت دول السوق اخراج مشروع البروتوكول الرابع للمساعدات الأوروبية لتركيا ، والذي كان يجدها من ناحية عام ٨٩م - كما قدمت لها مساعدات استثنائية بناء على اقتراح واشنطن لتعويضها عن خسائرها الاقتصادية من جراء قطع علاقاتها مع العراق ، وهي تتجاوز بليون دولار ..

في هذا الاتجاه نشير إلى التقرير الذي نشرته إحدى الصحف التركية وذكرت فيه أن اتفاقاً سرياً وقع في العاصمة الأرجنتينية بوينس آيرس ، ينص على إنشاء مفاعل نووي في منطقة « مرسين » التركية ، بمساعدة فنية وعلمية من جانب الأرجنتين . وهذا المفاعل يمثل جزءاً من محطة كاملة يمكن استخدامها فيها بعد لانتاج الأسلحة النووية ، وفي حالة اكتفاله ، فإن تركيا تستطيع أن تنتج قنبلة نووية خلال ستة

أشهر ، إذا ماتوفرت لذلك الأموال الازمة .<sup>(٤)</sup>  
فـ التـعـقـيـبـ عـلـىـ هـذـاـ النـبـأـ ، ذـكـرـتـ الصـحـفـ اليـونـانـيـةـ - حـسـبـاـ  
نـقـلـتـ وـكـالـاتـ الـأـنبـاءـ - انـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ خـفـفـتـ فـيـهاـ يـبـدوـ منـ  
تـحـفـظـاتـ اـزـاءـ مـحاـولـاتـ تـرـكـيـاـ لـزيـادـةـ قـدـرـاتـهـاـ الدـفـاعـيـةـ فـيـ مـجـالـ الطـاقـةـ  
الـنوـوـيـةـ ، أـثـرـ التـطـورـاتـ الـتـىـ اـسـتـجـدـتـ فـيـ مـنـطـقـةـ الـخـلـيجـ .ـ وـكـانـتـ  
واـشـنـطـونـ قدـ ضـغـطـتـ فـيـ السـابـقـ عـلـىـ حـلـيفـيـهاـ كـنـداـ وـأـلـانـيـاـ (ـالـغـرـبـيـةـ  
سـابـقاـ)ـ لـمـعـهـاـ مـنـ تـقـدـيمـ خـبـرـاتـ أـوـ مـوـادـ تـسـاعـدـ تـرـكـيـاـ عـلـىـ اـنـتـاجـ اـسـلـحـةـ  
نوـوـيـةـ ، بـسـبـبـ الـخـوفـ فـيـهاـ يـبـدوـ مـنـ اـحـتمـالـ اـنـتـقالـ هـذـهـ الـخـبـرـاتـ أـوـ  
الـمـوـادـ مـنـ تـرـكـيـاـ إـلـىـ باـكـسـتـانـ ، الـتـىـ تـحـاـوـلـ أـيـضـاـ صـنـعـ قـبـلـتـهاـ نـوـوـيـةـ ،  
خـاصـةـ وـانـ ثـمـةـ تـعـاـوـنـاـ وـثـيقـاـ بـيـنـ الـبـلـدـيـنـ .ـ وـلـسـنـاـ بـحـاجـةـ لـأـنـ نـدـخـلـ فـيـ  
مـزـيدـ مـنـ التـفـاصـيلـ لـنـوـضـحـ حـجمـ الدـورـ الـذـىـ تـهـيـأـ لـهـ تـرـكـيـاـ - أـوـ تـهـيـأـ  
لـهـ - لـتـصـبـحـ قـوـةـ كـبـرـىـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ .ـ وـإـذـاـ كـانـ الـقـدـرـ الـذـىـ ذـكـرـنـاهـ يـلـقـىـ  
ضـوءـ أـكـبـرـ عـلـىـ الـقـدـرـ الـعـسـكـرـيـةـ فـيـ الـمـقـامـ الـأـوـلـ ، إـلاـ أـنـاـ نـشـيرـ  
بـاختـصارـ إـلـىـ الـطـمـوـحـاتـ الـاـقـتـصـادـيـةـ الـأـخـرـىـ الـتـىـ تـتـطـلـعـ إـلـيـهـ انـقـرـهـ ،  
وـالـتـىـ تـتـمـثـلـ فـيـ مـحاـولـةـ تـرـكـيـاـ لـتـصـبـحـ الـمـوـرـدـ الـاـسـاسـيـ لـخـتـلـفـ اـحـتـيـاجـاتـ  
الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ مـنـ السـلـعـ الزـرـاعـيـةـ وـالـصـنـاعـيـةـ ، بلـ وـمـنـ مـيـاهـ الشـرـبـ  
أـيـضـاـ ، الـذـىـ اـطـلـقـتـ عـلـيـهـ اـسـمـ «ـاـنـابـيبـ الـمـيـاهـ لـلـسـلـامـ»ـ - وـبـمـقـضـيـاهـ  
سـتـقـومـ تـرـكـيـاـ بـيـعـ حـصـصـ الـمـيـاهـ مـنـ خـزانـاتـهـاـ وـسـدـوـدـهـاـ الـضـخـمـةـ لـكـلـ  
مـنـ :ـ سـورـيـاـ وـالـعـرـاقـ وـالـسـعـودـيـةـ وـالـارـدـنـ وـدـوـلـ الـخـلـيجـ وـالـضـفـةـ الـغـرـبـيـةـ  
الـمـخـتـلـةـ (ـفـيـ اـسـرـائـيلـ)ـ .

مشروع جنوب شرق الاناضول ، بحجمه الهائل يعد تعبيرا عن تلك الاستراتيجية التركية الطموحة . إذ انه يغطي مساحة تقدر بحوالى ٧٤ ألف كيلو متر مربع ، تعادل ٩,٥٪ من مساحة تركيا . وتقدر تكاليفه بعشرين مليار دولار ، ويشمل سبعة مشروعات في حوض نهر الفرات وستة في حوض دجلة – الاثنان ينبعان من جبال تركيا – وسيقام في اطاره ٢١ سدا و١٧ محطة للطاقة الكهربائية – وعنده الانتهاء من المشروع في سنة ٢٠٠٠ ، فانه سيتتج ٢٧,٨ كيلوواط من الكهرباء ، وسيروي مليون و٨٠٠ ألف هكتار من الارضى .

صحيفة «الحياة» نشرت مقالا بعنوان «أزمة الخليج وانبعاث الحلم العثماني» خلص فيه كاتبه إلى التبيجة التالية<sup>(٥)</sup> : إذا ما سلمنا جدلاً بأن واشنطن وأوروبا تسعian إلى منع وحدة عربية مواجهة لإسرائيل – وإذا أدركنا أن الجميع يتحسبون من انبعاث عالم إسلامي من طهران ، فإن هذا الافتراض بشقيه يرشح تركيا للدور لا يمكن التقليل من شأنه مع نهاية القرن الحالي .

ذلك كلـه صحيح ، لكن الاعتبار الذي ينبغي الا نغفله هنا هو حجم القبول الذي يتتوفر لتركيا في العالم العربي . إذ ان الترشيح لا يحسم المسألة إلا إذا توفر له القبول المناسب . واسرائيل اوضح نموذج على ذلك ، فهي منذ قامت مرشحة للدور الحارس للمصالح الغربية في المنطقة ، لكن الأميركيـان انفسهم يقـنـوا أن هذا الدور المفترض ليس محل قبول في العالم العربي ، كما اسلفنا .

من هذه الزاوية فلابد ان نلاحظ ان النخبة السياسية في انقره ترشح تركيا للقيام بذلك الدور المنشود باعتبارها « دولة غربية » - زعماؤها السياسيون يجهرون بذلك في مختلف المحافل - وهى تعتبر الورقة الاسلامية جسرا تعبّر من فوقه إلى العالم العربي ، لخدمة المشروع الغربي في نهاية المطاف . ولئن كانت تركيا المتغربة ، المعتزة بانفصالها عن العالم العربي مقبولة تماما في الغرب ، أو مقبولة نسبيا من قبل بعض الأنظمة العربية ، إلا أننا نذهب إلى أن هذه الموصفات ذاتها تحد من درجة قبول الدور التركي في الشارع العربي ، بوجهيه القومي والإسلامي . فمقابل ذلك يبرز الدور الإيراني كطرف « منتهى » إلى المنطقة ، ليس منفصلا عنها أو مستعليا عليها - وبرغم كل ما قد يقال عن مشروعه ، فالقدر المتيقن انه مستقل عن المشروع الغربي ، وانه يلتقي مع العالم العربي في حلم الاستقلال ذاك . والأمر المؤكد ان صدق التراame المعلن بالأرضية الإسلامية - ان تتحقق - يضع ايران مع الجماهير العربية المسلمة في خندق واحد .

لكن هذا الموقف تحبّط به تعقيدات أو اشكاليات ينبغي تجاوزها أولا ، بعضها سياسية وبعضها مذهبية ، وهي من الأمور التي نحاول مناقشتها في هذه الدراسة . وإذا ما تتوفر ذلك التجاوز واستبدل بحد أدنى من الثقة والفهم ، فان فرصة ايران في القبول والتفاهم مع العالم العربي ستكون افضل بكثير من فرصة تركيا ، ولا مجال للمقارنة باسرائيل .

ثمة اعتبار مهم لصالح ايران ينبغي عدم اغفاله عند المقارنة ،

وهو أن امكانيات إيران كدولة نفطية – فضلاً عن إمكانياتها كدولة زراعية غنية ومهمة ، واحتيااتها المماثلة كدولة صناعية ، ناهيك عن المعادن المتوفرة لديها – هذه العناصر تؤهلها لكي تؤدي دوراً في العالم العربي تعين من خلاله بعض الدول في مشروعاتها التنموية . وما جرى مع السودان واليمن يعزز ذلك الاحتمال . بينما تركيا تريد أن تعامل مع العالم العربي بحسبانه سوقاً لبضائعها ومنتجاتها وباباً حل مشكلات فائض العمالة لديها ، التي لم تعد الفرصة متاحة أمامها في أوروبا ، حيث أصبحت هجرة الأوروبيين الشرقيين تضغط عليها بقوة ، فضلاً عن أن سوق العمالة سيغلق أمام الأتراك في أوروبا الموحدة التي يتضرر أن تتم ولادتها في سنة ١٩٩٢ م .

اعنى أن إيران يمكن أن تقدم علينا للدول العربية التي تحتاج إلى العون ، بينما تركيا تريد أن تقدم سلعاً تسوقها في الدول الغنية . وبالتالي فإن إيران يمكن أن تعطى للعرب لكن تركيا تطمع في أن تأخذ وتكسب من العرب .

هناك اعتبار آخر نسبي لصالح إيران أيضاً ، في تعاملها مع منطقة الخليج . ينطوي من حقيقة الموقع الجغرافي . فإيران مشرفة على الخليج ، وبالتالي فهي جزء منه وشريكه فيه – أما تركيا فإنها من هذه الراوية دولة وافدة إلى الخليج وغريبة عليه . والأمر كذلك ، فربما جاز لنا أن نقول بأن تركيا في الخليج «مستوردة» ، بينما إيران « محلية » والحضور التركي إلى الخليج أياً كانت صورته يحتاج إلى جهد

وترتب ، بينما هو بالنسبة لإيران دون ذلك بكثير . يضاف إلى ذلك أن لإيران وجوداً مادياً في الخليج ينبغي أن يوضع في الاعتبار ، يتمثل أولاً في قواته البحرية المرابطة في مياهه ، ويتمثل ثانياً في كم العالة الإيرانية بـإمارات الخليج ، التي تقدر بنصف مليون شخص ، وهو رقم يعتبر بمعايير المنطقة – ويتمثل ثالثاً في خطوط التجارة المفتوحة بين الموانئ الإيرانية ودول الخليج .

وإذا كانت نسبة الشيعة في إمارات الخليج تصل إلى حوالي ٢٥٪ في المتوسط العام ، ونسبة بين الفعاليات الاقتصادية القابضة على السوق تقدر بخمسين في المائة ، فربما كان الخطأ والظلم أن ننسب هؤلاء إلى الوجود الإيراني ، لأنهم جزء من النسيج الوطني المحلي . – لكننا بدورنا نقول لهم . في الأغلب – لا يقفون في المربع الراهن لإيران .

إذاء ذلك ، فإذا قلنا أن الغرب والولايات المتحدة يريدون لتركيا دوراً منها في الخليج ، فقد لأنبأنا إذا قلنا أن محمل الظروف في المنطقة هي التي استدعت الدور الإيراني . وبلغة الأصوليين فإن الجهد الأميركي في أزمة الخليج « منشى » للدور التركي ، بينما كانت الظروف « كاشفة » للدور الإيراني . لقد اتجهت أبصار الغرب إلى تركيا ، لكن أبصار الشرق اتجهت ناحية إيران ! – لذا نفهم لماذا ذهب العرب إلى إيران بينما كان الرئيس التركي هو الذي زار عواصم العرب .

جرى ذلك الاستدعاء بينما بدا من مؤشرات عديدة أن القيادة التي سلمت السلطة في طهران عقب وفاة آية الله الخميني عازفة – أو

غير ممكنة - عن اداء دور خارج حدودها . على الأقل إلى أن تنتهي من إعادة بناء ما خربته الحرب في الداخل - وهي فترة قدرها الرئيس الايراني الحالى هاشمى رفسنجانى بعشر سنوات ، فيما اسماه « بعقد التنمية » عقب توليه السلطة في عام ١٩٨٩ .

لقد عقدت القيادة الإيرانية اجتماعاً في مساء اليوم الذى وقع فيه غزو الكويت ، واصدرت بياناً اعلن ان إيران لا تستطيع ان تقف مكتوفة الابد ازاء ماجرى . وان أى توسعات إقليمية عراقية ، أو أى تعديل في حدودها ، يدخل بأمن إيران ويهدد مصالحها .

في الثامن من أكتوبر (٩٠) نشرت صحيفة « لوموند » الفرنسية تصريحاً للرئيس هاشمى رفسنجانى جاء فيه مانصه : إن إيران سوف تستخدم كل مالديها من قوة للحيلولة دون تسليم الكويت الجزء من اراضيها إلى العراق ، للتوصيل إلى صفقة سلام بين البلدين . واضاف ان إيران ابلغت زعماء الكويت بأنها لن تقبل بادنى تنازل كويتي عن أى جزء من اراضيها ، بما في ذلك جزيرتا « وربة » و « ويوبيان » . وكان هذا الكلام القوى يعني ان إيران قررت ان تمارس الدور

المؤجل !

التاريخ حمل أوجهه : ليكن !

قلنا ان أزمة الخليج كانت كاشفة للدور الايراني ، الذى غاب أو غيب . ولنْ كان الخليج هو المناسبة ، إلا أن العرب والمسلمين هم

القضية . اعني ان الدور الايراني في منطقة الخليج لكي يوضع في اطاره الصحيح ، فينبغي ان يتم في سياق تأصيل العلاقات بين إيران والعرب . فهذا هو الأصل ، بينما الخليج هو الفرع ، ولا يمكن لفرع ان يستقيم طالما بق شأن الأصل معوجا . واصلاح ذلك العوج مهمة ليست سهلة وتعترضها صعوبات جمة ، لكننا نحسب ان ما بين العرب وإيران هو بكثير دون الذى كان بين السوفيت والامريكان ، ونجحوا في اجتيازه والتغلب عليه . اعني ان ذلك الاصلاح الذى نصبو إليه ليس مستحيلا بأى حال ولا يحتاج إلى معجزة بأى معيار .

وغمى عن البيان ان الذى يعنينا في الأمر كله هو مصلحة الأمة الإسلامية والعربية بالدرجة الأولى . ليس بلدا بذاته ، ولا نظاما بذاته ، ولا مذهبها بذاته . وهو الموقف الذى التزمنا به منذ قامت الثورة الإسلامية في إيران .

ولاجمال هنا لتقيم الشوط الذى قطعه إيران على صعيد تحريرتها الإسلامية ولا محل لابداء الملاحظات أو تسجيل التحفظات ، فلذلك سياق آخر . إنما نحن معنيون بالأرضية التي وقفت عليها الثورة الإسلامية في إيران . وإذا كان البعض يقدرها بحسبانها أرضية إسلامية ، بينما آخرون يرونها تعبيرا عن الموذج المستقل . غير التابع أو غير المنسحق امام مشروعات وخطط الدول الكبرى . فاكثر ما يهمنا في هذه النقطة ان إيران في وضعها الجديد صارت تلتقي مع الأمة العربية على اكثرا من صعيد ، في الضمير والحلم ، واما ذلك اللقاء إذا

أحسن استثماره ورفعت من طريقه الأشواك والالغام ، يمكن ان يكون عنصرا مهما في انجاح مشروع النهضة المستقل لهذه الأمة العربية والإسلامية .

يلوح البعض هنا بالتاريخ ، مستخلصا منه اشارات حمراء تسد الطريق ، وتنبع السير في ذلك الاتجاه . ونحن في زماننا هذا بوجه اخص صرنا اشد اقتناعا بان منطق «توازن المصالح» نسخ ما قبله من حسابات ، حتى غدا التاريخ حائلا وهبها يتعلق به العاجزون أو الحمق . اعني أولئك الذين فقدوا الارادة أو الذين فقدوا القدرة على التميز فأعمتهم الحساسيات والمرارات عن رؤية المصالح العليا ، أو رؤية المنعطف الذي مررت به البشرية ، وانتقلت بمقتضاه من طور إلى طور - من عالم الخصم وال الحرب الباردة ، إلى عالم الوفاق والتلاقي حول المشترك الذي يوفر أسباب الرخاء لمستقبل البشرية .

ورغم اننا سنتوقف عند نقطة التاريخ هذه بعد قليل ، إلا أننا نريد ان نستبق بكلمتين موجزتين نوجهها إلى الذين يشهرون سلاح التاريخ في هذه القضية الحيوية .

**الكلمة الأولى هي :** ان التاريخ حمال أوجه حقا ، إذا اردت ان تستخلص من بعض وقائعه ان ثمة «استحالة» في التعايش بين العرب وإيران ، فلن يستعصى عليك الأمر . وإذا اردت ان تقرأه بمنهج مختلف فالامر ميسور بذات القدر . وقد تتوقف المسألة على رغبتك أو مرادك . ان اردت انقطاعا وانفصالا وجدت ، وان اردت اتصالا نجحت .

اننا ممن يقولون بان قراءة التاريخ ينبغي الا تتم استناداً إلى واقعة أو مجموعة محددة من الواقع ، وإنما هي تصبح اكثراً صواباً لو تمت من خلال رصد المجرى العام للحوادث ، وطبيعة الظرف السياسي والاجتماعي الذي وقعت فيه تلك الحوادث . فإذا توالت روايات الاشتباك والخصومة بين العرب والفرس أو بين الشيعة والسنّة مثلاً ، فان تحقيقنا في المناخ السياسي الذي جرت في ظله تلك الظواهر ربما دلنا على ان المشكلة ليست في هذه الخصومة أو تلك ، ولكنها كامنة في حالة الانحطاط السياسي الذي ادى الى تفسخ العلاقات بين العرب وغيرهم من الشعوب ، إلى شیوع التعصب بين مختلف اصحاب الملل والنحل . وعهدنا بذلك الانحطاط بعيد كما هو معلوم !

مع ذلك فإنه إذا ثبت ان سياق الأحداث ومحراها يمكن ان يوصلنا إلى التبيّجتين . أى بتوافق احتلالات الوصال مع احتلالات الانفصال ، فربما كان من المنطق والمرغوب في هذه الحالة ان ننحاز إلى الاحتمال الذى يخدم المصالح العليا للأمة ، وليس الاهواء أو التزوات العارضة لأى طرف كان . وبالتالي فالسؤال المفيد يصبح على النحو التالي : أين تكمن مصلحة الأمة ، وهل تكون في المضى بهذا الاتجاه ام ذاك ؟

**الكلمة الثانية :** خلاصتها ان علاقات الأمم ، بعدما نضجت التجربة الإنسانية وتجاوز المجتمع طور القبيلة إلى مرحلة الدولة ، لا تحكمها خصومات الماضي ولا ثاراته أو ماراته ، وإنما هي تنهض في

الاساس على حسابات مصالح وطموحات الحاضر والمستقبل . وعلى ذلك فالماضى في انفس صوره ينبغي الا يكون حائلا دون صناعة حاضر ومستقبل افضل ، والتناقضات منها بلغت في حدة التناقض والتباعد لا يعود لها وزن إذا ما اقتضت المصلحة لقاء في نقطة أو موقف . الحال في زماننا يؤكد ذلك ، ويشهد بان الاعداء التاريخيين ، حتى من أقام منهم مشروعه على هدم الآخر وهزيمته (الشيوعية والرأسمالية مثلا ) ، هؤلاء أتوا بالماضي وراء ظهورهم وبدأوا عهدا جديدا يرفع رايات «البيت المشترك» والمصير الواحد . من الذي أعطى الماضي رخصة مصادرة المستقبل أو اغتياله !؟

( ٢ )

## مفاتيح المشكلة : الوهم والحقيقة

شأن كل المهزات التاريخية فان الحرب العراقية الإيرانية ، أحدثت أثراً تجاوز الاقتتال المسلح ، الذي تشير دلائل عدّة إلى ان صفحاته قد طوّيت في المرحلة الراهنة ، اثر اعلان القيادة العراقية في منتصف أغسطس ١٩٩٠ عن استجابتها للطلبات الإيرانية الخاصة بتسوية المشكلات المعلقة بين البلدين ، والتزامها بوجه اخص باحترام اتفاقية ١٩٧٥ التي كان تعديل بنودها أحد أهم الأسباب المعلنة لشن الحرب في سنة ١٩٨٠ م .

ورغم أن المدافع سكت ، إلا ان دويها لا يزال يتربّد في أعماق الأمة خصوصاً وان القصف المتبادل تجاوز الأهداف العسكرية أو المدنية ، حتى استهدف تشويه الوعي إلى أبعد مدى ممكن ، الأمر الذي أفرز ما يمكن ان تسميه اشكاليه أو عقدة في العلاقات العربية الإيرانية .  
 لقد افرزت تجربة صراع السنوات الثاني بين إيران والعراق « ثقافة » عملت في مجريها العريض على تعميق الفجوة ليس فقط بين الطرفين ، وإنما بين إيران والعرب بوجه عام . حتى ذهب كثيرون من المعلقين والباحثين العرب إلى اعتباره صراعاً تاريخياً وحتمياً ، كان منذ الأزل

ومستمر بالضرورة إلى الأبد . واستندوا في ذلك إلى العنصر القومي (عرب وفرس) الذي يؤدي فيه العرق دور الحائل الذي يقف دون امكانية التلاقي<sup>(٦)</sup>

وكان الخطاب السياسي العراقي أول مافتح الباب لاثارة البعد القومي أو العرق ، مرة بتسمية المعركة ضد إيران باسم «القادسية» ، استلهاما من المعركة الأولى للمسلمين ضد الفرس ، التي انتصر فيها جيش المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص ، على «رسم» قائد جيش الفرس . رغم ان المواجهة لم تقم في الأساس على صراع العرب والفرس ، وإنما كان أساسها هو صراع الإسلام ضد الشرك .

ومرة ثانية باستخدام الكلمة «المجوس» في وصف الإيرانيين ، على الأقل في السنوات الأولى للحرب ، مما اعتبر استثارة من نوع آخر للنعرة القومية والعنصرية ، باعتبار ان المجوسية هي عقيدة الفرس قبل الإسلام . ونحن نلاحظ في هذا الصدد ان ثمة محاولة أخرى بذلت لاستثارة النعرة المذهبية فضلا عن العرقية لزيادة التوتر بين العرب وإيران ، تمثلت في صدور كتاب بعنوان « وجاء دور المجوس » الذي اتهم مؤلفه قادة الثورة الإسلامية في إيران بأنهم «يسعون لاعادة مجد كسرى ونار مزدك» !

ولاجمال هنا لرصد مختلف الكتابات التي حاولت استثمار الصراع بين إيران والعراق لتصفيية حسابات مذهبية قديمة ومريرة ، وقد حصر

احد الباحثين الايرانيين عنوانين تلك الكتب ، وقدر عددها بحوالى ١١٥ كتاباً باللغة العربية ، بعضها أعيد طبعه في ظروف الحرب ، وبعضه ألف خصيصاً للمناسبة ١

لفت نظرنا في تلك الكتب ، عنوان «الصراع بين الاسلام والوثنية» وهو مؤلف في ٧٠٠ صفحة أصدره الكاتب السعودى عبد الله القصيمى فى سنة ١٩٣٧ . ولكن طبعته الثانية صدرت فى سنة ٨٢ ، أى بعد خمس وأربعين عاماً . ومن عنوانه يصوّغ المؤلف العلاقة بين ايران والعرب فى كونها مواجهة بين الاسلام والشرك . لفت نظرنا أيضاً ان منطلق التضاد الذى تبناه القائلون بأزليّة الصراع بين العرب والفرس ، تأثر به ايضاً بعض علماء المسلمين فى تناول القضية ، إذ اعتبرها أيضاً صراعاً ابدياً لا سبيل إلى حلّه بين الشيعة والسنّة . يتمثل ذلك الاتجاه الأخير فى كتاب العلامة أبو الحسن الندوى بعنوان «صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية» – وقد صدر باللغة الاردية فى الهند سنة ٨٤ ثم ترجم إلى العربية ووزع فى كافة أنحاء العالم العربي فى العام التالى مباشرة (٨٥م) .

إن الباحث عندما يطالع ملف اشكالية العلاقات العربية الإيرانية ، وكم الالغام المبثوثة في مختلف صفحاته يستطيع ان يلحظ على الفور ان ثمة ادوارا سلبية قامت بها أطراف بذاتها ، ادت إلى احداث الفجوة وتشويه الوعي العام ازاء المشكلة .

ونحن نشير بأصابع الاتهام إلى أطراف أربعة ، تحمل المسئولية

أمام الله والتاريخ في هذا الصدد .

- فالخطاب السياسي العربي الذي وقف موقف الخصومة من إيران ، والعراق في المقدمة منه ، يتحمل مسؤولية أولى في هذا الصدد . ليس مجرد الخصومة ، التي لم تكن مبررة في ذاتها ، ولكن لأنه استخدم أساليب غير مشروعة ضمن أدوات صراعه ، اذ لم يتردد في توجيه الطعنات المسمومة التي استثارت مختلف الضغائن العرقية والمذهبية ، ليكسب في النهاية المعركة العسكرية .
- على صعيد آخر ، فإن الكتاب ذو الانتفاء القومي العربي ، كان لهم دور سلبي آخر يتعين اثباته ، إذ انطلاقاً من ذلك الشعور القومي ، فانهم غذوا العصبية العرقية ، وثبتوا مقوله الفصام التاريخي والصراع الأزلي ، التي عبّرت العقل العربي بأسلوب غير صحي ونجح غير موضوعي ، وهم في ذلك لم يفرقوا بين الاعتزاز القومي ، وهو قيمة إيجابية ومقدرة ، وبين العصبية القومية التي هي سلبية جاهلية .

- من ناحية ثالثة فان فيلق الكتاب والباحثين العرب ، الوصoliين والانتهazين ، ظل شغلها الشاغل - كدأبها في كل زمان ومكان - هو صب الزيت على النار ، ومباركة وتأصيل الخصومة ، والمزايدة عليها - وقد رأينا نفراً من هؤلاء الذين ملأوا الدنيا هتافاً لصالح النظام العراقي واطروحاته في الحرب ضد إيران . وهم أنفسهم الذين يملأون الدنيا الآن سباباً للنظام العراقي بعد غزوه للكويت ، في

بعض الأقطار العربية المعارضة للموقف العراقي .

من ناحية رابعة ، فإن المرء لا يستطيع أن يعنى أهل العلم من المسئولية أيضاً . وقصد بذلك أهل العلم الشرعى والدینى . إذ يأسف المرء لعلماء ودعاه أججوا الصراع المذهبى وجددوا بذور الفتنة في الصف الإسلامي ، وبينفس المقدار ، فإن ثمة باحثين وظفوا علمهم من أجل خدمة الصراع السياسي ، واثارة الشكوك والهواجس ، فكانوا اداة فصل وشخ ، وليسوا جسور وصل ولا دعاة بناء . وقد ذهب بعض هؤلاء إلى تصنیف إيران في المربع المعادى للأمة العربية ، الواقف في الصف الإسرائيلي ، والمؤهل للتأمر مع تركيا وأثيوبيا . لحصار الأمة العربية لضرب مصالحها .

• لا يستطيع المرء «أخيراً» ان يلغى دور العنصر الأجنبي المتآمر في الموضوع . وتلك حقيقة نفهمها وإن لم تتوفر لنا وقائع اثباتها . إذ المؤكد ان ثمة اطرافاً دولية معنية أشد العناية باقامة حاجز كثيف من العداوة والبغضاء بين العرب وإيران فهو لاء يعلمون ان لقاء عربياً إيرانياً من أي نوع هو نذير بتغيير خريطة المنطقة ، ومقدمة للتغيير وتهديد استراتيجيات الدول العظمى . في هذا الصدد فإن المرء لا يستطيع أن يستبعد تلك الاشارات الموحية بان ثمة دور للمصالح الغربية في حث أو تشجيع العراق على الهجوم على إيران بعد نجاح الثورة الإيرانية عام ٧٩ .

## الذى تعنيه إيران لأمة العرب :

هذه النقطة الأخيرة تفتح الباب للتساؤل عما تعنيه إيران بالنسبة للأمة العربية - فربما فسرت لنا الإجابة على ذلك التساؤل أسباب حرص اطراف عديدة ، داخلية وخارجية على دوام الخصام بين العرب وإيران واحياء صراعات الطرفين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً إيران تمثل بالنسبة لنا نحن العرب المسلمين مaily :

- ١ - دولة إسلامية شقيقة وعريقة ، تجمعنا بها أخوة الدين منذ أربعة عشر قرنا . وبتعداد سكانها الذي يبلغ أكثر من خمسين مليونا ، وبوضعها الراهن ، فإنها أيضا تمثل حجر الأساس في محيط الشيعة الإمامية ، الذين يبلغ عددهم مائة مليون شخص تقريبا . اعني أنها مهمة بذاتها ، ومهمة بما تمثله في الواقع الإسلامي ، والأمران لها اعتبارهما في المنظور الاستراتيجي . فهي بالنسبة لأمتنا العربية تمثل عملا استراتيجيا ينبغي عدم اغفاله ، وهى من المنظور الإسلامي تمثل مخزنا بشريا كبيرا ينبغي ان يحتسب وزنه .
- ٢ - تجربة إسلامية باللغة الثراء في ميلادها وفي مسارها . فالثورة التي شهدتها إيران في نهاية السبعينيات تظل حدثا ضخما بكل المقاييس ، وهو أحد اعظم احداث هذا القرن . إذ كانت كشفا منها عن خطورة الدور الذي يمكن أن يؤديه العنصر الإمامي في رفض الجور واسقاط الطواغيت ، وتكميلها دامغا لاتهام الدين بتحدير الشعوب وتواكلها .

وفي الممارسة ، يتمثل غنى التجربة في كونها أول محاولة لاقامة دولة إسلامية عصرية بعد إلغاء الدولة الإسلامية في سنة ١٩٢٤م . دولة لها دستور و مجلس نوابي و بناء سياسي ينطلق من الالتزام الإسلامي ويحاول التعبير عن ذلك الالتزام في مجالات الثقافة والتعليم والاقتصاد والتخطيط وما إلى ذلك ، ذلك لا يعني بالضرورة إن نجاحات تحققت في كل تلك الميادين ، وإنما نحن نتحدث عن مجرد الاقدام على التجربة ، الأمر الذي يقدم نموذجا يمكن الاستفادة منه على الصعيد الإسلامي ، سواء بتمثل النجاحات أو تحنب أسباب الفشل والاحباط .

٣ - هي أيضا أحد أضلاع المثلث الذي تعتبره الدراسات السياسية والاستراتيجية ركيزة ما يسمى بالشرق الأوسط ومركز الثقل فيه .  
الضلعان الآخران هما مصر وتركيا . والدول الثلاث هي الأكبر في تعداد سكان المنطقة (كل منها فوق الخمسين مليون) . فضلا عن ان لكل منها خصوصية استراتيجية معينة ، في الموقع الاستراتيجي ووفرة المواد الاقتصادية والعمق التاريخي .

٤ - إيران هي باب العالم العربي إلى آسيا ، كما أن السودان بابه إلى أفريقيا . وتاريخيا فقد كانت إيران هي الجسر البري الذي كانت التجارة تنقل عبره بين الشرق والغرب ، من خلال ما عرف باسم طريق الحرير . الأهم من ذلك ان المضبة الإيرانية تمتد وراء الجناح الشرقي للعالم العربي حيث تعتبر حارس الظهر وحاميه - بقدر ما

انها يمكن ان تؤدى دورا معاكسا كمهدد ورادرع .

٥ - في موقعها ذاك ، وعلى الطرف الآخر ، فإن ايران تقع في مؤخرة الاتحاد السوفيتي وظهره ، إذ الحدود المشتركة بينهما تصل إلى ٢٥٠٠ كيلو متر . واهميتها على هذا الصعيد تكمن في اطلاقها على الاتحاد السوفيتي ، الأمر الذي حاولت الولايات المتحدة استغلاله إلى ابعد مدى في صراعها مع موسكو - ليس هذا فقط ، ولكن الأهم من ذلك - من وجهة نظرنا أنها لصيقة بجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية السوفيتية ، خصوصا جمهوريتا أذربيجان وطاجكستان ، اللتان ينتشر فيها المذهب الشيعي الثاني عشرى . وإذا وضعنا في الاعتبار ان المسلمين السوفيت يبلغ عددهم ٦٠ مليون نسمة تقريبا ، وأن بعضهم يتوجه بالتدريج نحو الاستقلال عن سلطة الاتحاد السوفيتي ، وهى الموجة السائدة هناك الآن ، فلنا ان نتصور أهمية إيران في هذا الاطار ، والدور الذى يمكن ان تؤديه إذا ما تحقق ذلك الاحتلال .

٦ - بسبب أهميتها الاستراتيجية وثقلها السكاني وعمقها الحضاري ، فإن الدور الإيرانى كان دائما يتجاوز حدود البلاد الجغرافية وتاريخيا فان إيران لم تكن يوما ما منكفة على ذاتها داخل المضبة ، وإنما كان تأثيرها يمتد اما شمالا وشرقا في العمق الآسيوى ، أو جنوبا وغربا بإتجاه المحيط العربى . وتقاد حركتها تتم بطريقة تبادلية على هذين المحورين . ويظل السؤال المهم هو : في ظل أي شروط يتم

## المدد الإيرانية ، وكيف يمكن أن يمثل بالنسبة للأمة العربية والإسلامية أضافة لا خصماً ؟؟

٧ - يتصل بذلك عنصر آخر ، هو أن إيران كانت في عهد الشاه ومازالت تؤدي دوراً منها في منطقة الخليج . ولشن كان الشاه قد حاول أن يؤدي دور شرطي الخليج . فان هذا الدور لم يعد وارداً الآن سواء لأن إيران انهكت خلال سنوات الحرب وستظل مشغولة بإعادة بناء ما دمر لمدة عشر سنوات مقبلة على الأقل . أو لأن النظام الحالي ليس طامعاً أو ليس مؤهلاً لأن يؤدي تلك الوظيفة . أو لأن الوجود الأجنبي في المنطقة المستمر منذ سنوات الحرب (سنة ٨٧) . جعل للمنطقة - وللعالم فيها بعد - شرطياً واحداً هو الشرطي الأمريكي . مع ذلك فإن أزمة الخليج الراهنة ، اغلب الظن أنها ستسفر عن دور أكبر لإيران في نهاية المطاف ، لا لقدرات إضافية ستتوفر لها ، ولكن لأن الاطراف الأخرى في الخليج يرجع لدورها أن يتراجع .

فالخليج من الناحية التاريخية كان يتأثر بادوار ثلاثة دول هي السعودية والعراق وإيران . وفي الأزمة الراهنة ظهرت السعودية في صورة أضعف مما تصور كثيرون . وأغلب الظن أنه سيتم تحجيم القوة العسكرية العراقية ، لأن الاحتلال الكويتي اسفر عن شرور في مسلك النظام العراقي لا يحتملها النظام الدولي الجديد ، خصوصاً وإن مغامرات العراق تؤثر على استقرار أسواق النفط بما يهدد العالم

الصناعى بـأخطار عدّة . بالتالى فشمة اتفاق بين كثير من المخللين على ان قوة العراق لن تبقى كما هي في الأجل القريب .

وإذا صح هذا التصور فإن الطرف الذى س يتمتع بوضع أفضل نسبيا بعد انتهاء الأزمة الراهنة ، هو إيران . وذلك بالطبع سيضفى عليها أهمية أكبر يتعين اخذها فى الاعتبار عند تصحيح العلاقات العربية الإيرانية .

٨ - فضلا عن الأبعاد السياسية والاستراتيجية والدينية ، فشمة مصالح اقتصادية للعالم العربى مع إيران لا يمكن تجاهلها . وتجربة منظمة «الأوبك» أثبتت أن التفاهم العربى الإيرانى له دوره المهم في تحديد اسعار النفط . وثمة دراسة في وزارة النفط الإيرانية تقول ان سعر برميل البترول لو زاد بمقدار دولارين فقط ، فإنه يرفع من عوائد كل من إيران والعراق بمقدار مليار دولار في السنة . وإن زاد بمقدار أربعة دولارات فإنه سيضيف إلى دخل مصر مليار دولار ، أما إذا زاد بمقدار ستة دولارات ، فإن عائدات كل من العراق وإيران والكويت ستزيد بمقدار ثلاثة مليارات ، بينما سيزيد دخل السعودية بمقدار ٥٤ مليار دولار - أما مصر فسيزيد دخلها بما قيمته مليار ونصف مليار دولار .

**أين تكمن الاشكالية؟**

ما الذي يحول دون خلق اتجاه إيجابية في العلاقات العربية الإيرانية؟

ما هي طبيعة الاشكالية في تلك العلاقات؟

ثمة أربعة احتفاظات في تصور الاشكالية المفترضة هي :

- ان تكون المسألة عرقية ، كامنة في طبيعة العلاقة بين العرب والفرس .

- ان تكون القضية ثقافية محورها « صراع » الإسلام والعروبة .

- ان تكون الاشكالية مذهبية نابعة من الخلاف السنوي والشيعي .

- ان تكون المصالح السياسية هي مصدر الاشكالية .

لنجاول ان نتحقق في هذه الاحتفاظات واحدا بعد الآخر ، علّنا نضع ايديينا على بيت الداء .

**(أ) عرب وفرس : الإسلام حل المشكلة :**

« لقد شكل الفرس بعد مائة عام من الفتح الإسلامي قوة عسكرية عظيمة .. استطاعوا بها ان يسيئوا في نقل الخلافة من البيت الأموي إلى البيت العباسى . ولو أنهم ارادوا ان يؤلفوا كيانا سياسيا مستقلا (قائما على العصبية الفارسية) لما استطاع احد ان يحول بينهم وبين ذلك الهدف - ولكنهم كانوا اشد حرصا على الحياة في ظل الخلافة الإسلامية بصرف النظر عن الاعتبار العرقي .

« وعندما ثار الايرانيون على مظالم الامويين في خراسان ، فانهم لم ينطلقوا من عصبية فارسية أو دعوة انفصالية . وإنما كانت ثورتهم تبني الدعوة إلى المساواة والعدل . وكانت رايتهم التي رفعوها عندما اعلنوا تمردتهم ، سواء كتبت عليها الآية القرآنية « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » .

« لم تحرّكهم العصبية العرقية ولكن الظلم هو الذي استفزهم واستنفرهم . ولم يعملا على إقامة حكم فارسي يحميهم - وكانوا على ذلك قادرين - وإنما سعوا إلى رفع الظلم بتسليم مقاليد الحكم إلى خلافة إسلامية جديدة ، ظنا منهم أن ذلك كفيل بتوفير العدل الذي افتقدوه واقدموا على ذلك لا باعتبارهم فرسا ، ولكن بحسبائهم جماعة من الأقليات المضطهدة في الدولة الإسلامية .

« لقد استطاع الإسلام تذويب المشاعر العرقية والعصبيات القومية . حتى شهدت القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة نهضة مباركة اسمهم فيها العرب والجم . فصارت مدن إيران الكبرى منارات للعلم الإسلامي ، وعرفت مدارس نيسابور وهرات وبلغ ومرغ وبحارى وسرقند وأصفهان ( كانت حدود إيران ممتدة من ساحل نهر الفرات إلى نهر جيحون في أوسط آسيا ) وتربى في هذه المدارس المئات من رجالات الإسلام وعلمائهم . وكانت خراسان معلقاً من معاقل دراسة علم الحديث ، لذا لانستغرب أن يكون أصحاب كتب الصحاح الستة - جمعياً - من إيران ، بينما اثنان من أئمة أهل السنة من خراسان

هما : أبو حنيفة النعمن ، وأحمد بن حنبل .

« ومن اللافت للنظر في هذا الصدد ان الشعوب الإسلامية كانت في أغلب الأحوال تتبع فتاوى من يختلفون معهم في الاتماء العرق - فالمصريون مثلاً كانوا يتبعون فتاوى الليث بن سعد الفارسي ، بينما كان أكثر الفرس يتبعون الشافعى العربى . وكان بعض علماء إيران كامام الحرمين الجويني والغزالى والطوسى يميلون ميلاً إلى الشافعى باكتئاف ميلهم إلى أبي حنيفة . وحينما تشييع الفرس بعد هذا تقلدوا امامية الأئمة الأطهار عليهم السلام ، وهم هاشميون من قريش !

« لابد أن يستوقفنا في هذا الصدد أيضاً أن الفرس عندما دخلوا الإسلام أصبحوا أكثر شدة من العرب على المحسوس في بلادهم . وهذه الشدة هي التي دفعت عدداً من المحسوس للهجرة إلى الهند حيث شكلوا هناك الأقلية الفارسية المحسوسية القائمة إلى الآن .

« هنا أيضاً يجدر الانتباه إلى الذين دعوا في صدر الإسلام إلى التمسك بالعقائد الفارسية القديمة ، من أمثال بهافريه وسناباد وبابك ومازايار ، هؤلاء قتلوا بأيدي أبو مسلم الخرساني وافشين الفارسي والعسكر الفارسي العباسى » .

هذه الشهادة سجلها العلامة الشهيد آية الله مرتضى المطهرى ، من آباء الثورة الإسلامية في كتابه « الإسلام وإيران »<sup>(٨)</sup> .

هل كان احياء اللغة العربية واستمرارها ، تعبيراً عن مقاومة العروبة متمثلة في اللغة العربية ؟

رد العلامة المطهرى على ذلك بقوله : إذا كان ذلك الافتراض صحيحًا ، فلماذا اتعب علماء بلاد فارس انفسهم في احياء اللغة العربية أيضا ، ببيان قواعدها العربية والنحوية والاشتقاقية ، والمعانى والبيان والبديع ، وفنون الفصاحة واساليب البلاغة ؟ – إذ الثابت تاريخيًا ان احدا لم يخدم اللغة العربية كما خدمها الفرس .. فهم لم يتعاملوا معها باعتبارها لغة أجنبية ، وإنما كانت عندهم لغة كتاب الله ، ولغة الإسلام وكافة المسلمين . لهذا تفانوا في خدمتها وكان في المقدمة من هؤلاء الفرس سيبويه وعبد القادر الجرجاني مؤسس علم البلاغة ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى وابن فارس والزمخشري والسكاكى والخطيب القزوينى والفيروزبادى وأمثالهم .

من ناحية ثانية فالثابت تاريخيًا أيضًا أن بنى العباس – وهم عرب – انحازوا إلى اللغة الفارسية ، ليس تعصباً لقومية بذاتها ، ولكن لمناهضة سياسة بنى أمية ، الذين انبثت سياستهم على أساس تفوق العرب على غيرهم من المسلمين .

فضلاً عن ذلك ، فإن الدول أو الدوليات الإسلامية التي اقامها الفرس الإيرانيون ، كالطاهريين والديلمة والسامانيين ، لم يبذلوا أى جهد لاحياء اللغة الفارسية وإنما كانت العربية هي اللغة المفضلة لديهم ، إذ كانوا أكثر انحيازاً إلى لغة الإسلام وعموم المسلمين . أما الذين احيوا اللغة الفارسية وشجعواها ، فهم الغرتويون ، الذين كانوا من الترك ، وكانوا أهل سنة !

هذه شهادة ثانية أوردها أحد الباحثين المصريين المخضرمين هو الدكتور عبد النعيم حسين ، رئيس قسم اللغات الشرقية بجامعة عين شمس ، وقد أثبت فيها النص التالي : « ارتبط تاريخ إيران بتاريخ العراق عبر العصور المختلفة قبل شروق شمس الإسلام وبعد شروقها ، ودخول الدولتين تحت راية الإسلام ومساهمتها في بناء صرح الحضارة الإسلامية ... فقد كانت العراق عاصمة الدولة الساسانية (الفارسية) التي اسقطها المسلمون . ثم أصبحت إيران جزءاً من القسم الشرقي من الدولة الإسلامية في العصر الأموي . فكانت تخضع لإدارة والى المسلمين في العراق .

« وقد ازدادت صلة إيران بالعراق في العصر العباسي ، حين كانت بغداد عاصمة الدولة الإسلامية ومقرًا للخليفة العباسي أكثر من خمسة قرون من الزمان امترجت في اثنائها دماء الإيرانيين بدماء العرب بوجه عام ، وبدماء العراقيين بوجه خاص ، بعد أن آخى الإسلام بينهم جميعاً » .

وقد وضع ارتباط إيران بالعراق في العصر السلاجقى الذى امتد أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان فى ظل الخليفة العباسية ، بعدما كون السلاجقة فى عام ٤٢٩هـ دولة حظيت باعتراف الخليفة العباسى .. (وصل ارتباط العراق بإيران فى ظلها إلى الذروة) حتى كانت من أقوى الدول الإسلامية التى ظهرت على مسرح التاريخ . « وظل ارتباط إيران بالعراق مستمراً بعد سقوط الدولة العباسية

على ايدي المغول ، فربطت بينها وحدة المصير والإدارة في العصرين المغولي والتيموري . فلما قامت الدولة الصفوية (التي اعلنت تشيع إيران في بداية القرن السادس عشر الميلادي ) ، واشتبكت مع العثمانيين السنيين في منازعات وحروب امتدت أكثر من قرنين من الزمان ، لم تقطع صيتها بالعراق . فقد تبادل الصفويون والعثمانيون الاحتلال العراق ، ثم رجحت كفة العثمانيين في النهاية ، إلى أن أصبح العراق دولة مستقلة في عشرينيات القرن الذي نعيش فيه .

ومازالت اثار ارتباط إيران بالعراق طوال القرون العديدة السالفة ، واضحة في كلتا الدولتين ، وضوحا لا يحتاج إلى من يشير إليه ، أو يسوق الأدلة على وجوده - انتهى<sup>(٩)</sup> .

ثمة نقاط أخرى نسوقها في رد مقوله الصراع العربي الفارسي هى :

- إن اعتبار الشعب الإيراني في وضعه الراهن بمثابة امتداد « للفرس المحسوس » ، يتنافى مع أبسط المعلومات عن التاريخ الإيراني المعاصر . ففي الصراع بين نظام الشاه السابق والمؤسسة الدينية الإيرانية كان الشاه يمثل تيارا ثقافيا متغربا ، معاديا للتاريخ الإسلامي لإيران . ففي عهده وفي ظل رعايته جرى اعتبار الإسلام أمرا طارئا في تاريخ البلاد . وبذلك الجهد لاعادة الحياة للمجاد فارس ما قبل الإسلام<sup>(١٠)</sup> . (لاحظ هنا ان التحيز كان ضد الإسلام وليس ضد العرب) .

- أما المؤسسة الدينية الشيعية فهي بحكم تكوينها وثقافتها كانت أقرب للعرب وأكثر تأكيداً على انتمام إيران الإسلامي . وقد اعتنت هذه المؤسسة باللغة العربية في المساجد والحسينيات والمحوزات العلمية . وبعد الثورة نص في الدستور على اعتبار العربية بمثابة اللغة الثانية في البلاد وصارت تدرس بشكل ملزم لطلاب المدارس ، وحتى دخول الجامعة . وهو الموقف الذي دعا الناقدون للثورة إلى اتهامها بأنها نقلت البلاد من التغريب إلى التعرّب<sup>(١١)</sup> .
- ان الفرس في إيران الحالية ليسوا أغلبية ، وإنما هم يشكلون ٤٥٪ فقط من السكان ، بينما هناك ثمان قوميات أخرى في البلاد أكبرها وأهمها التركية ..
  - ان تعاليم المذهب الشيعي الائني عشرى الذى يعتنقه الأغلبية الساحقة من سكان ايران ، من فرس وترك ، تقضى بان شرعية الحكم لا تثبت إلا إذا كان الإمام عربيا ، من نسل آل البيت ، لذلك فإن أمة الشيعة كلهم من العرب . وقد مر بنا قول آية الله مطهرى ان الفرس عندما تشيعوا فانهم سلموا قيادهم في الحكم والمذهب - للأئمة الهاشميين ، الذين هم من صلب قريش .
  - ان الصراع الصفوى العثماني ، الذى دام قرنين من الزمان ( بين القرنين ١٦ ، ١٨م ) كان بين الصفوين والأتراك ، ولم يكن للعرب فيه ناقة ولا جمل : وبالتالي فكل جدل حول ذلك الصراع ينبغي ان يستبعد من الدائرة التي تتحدث فيها .

- ان الحركة القومية العربية اختارت في ذاكرتها التاريخية ، وبتأثير من الرواد الأوئل للدعوة القومية ، قبيل وبعد الحرب العالمية الأولى ، صورة للعداء العربي التركي ، بسبب السيطرة العثمانية المباشرة على العراق وبلاد الشام . ولكننا لأنكاد نجد في اطروحاتها موقفاً معاذياً لايران أو للقومية الفارسية . الأمر الذي يعني ان التناقض «الختمي» مع ايران كعدو قومي ، لم تكن مطروحة على جدول أعمال القوميين العرب .

- ان حزب البعث الاشتراكي بدوره لم يكن له وهو في الحكم موقفاً عقدياً ثابتاً معاد لايران ، دليل ذلك ان جناح الحزب الحاكم في سوريا ظل على علاقة طيبة ووثيقة مع الثورة الإيرانية منذ قيامها وحتى الآن ، بينما الجناح الحاكم في العراق هو الذي شن الحرب ضد ايران . وهو ما يعني ان الحسابات التي حكمت العلاقة لاصلة لها بمقولة الصراع التاريخي بين عموم العرب وعموم الفرس .<sup>(١٢)</sup>  
إن المرء وهو يطالع صفحات تاريخ العلاقات العربية الإيرانية في مجراها العريض لا يكاد يجد اصلاً أو سندَاً كافياً يدعم فكرة ذلك الصراع الذي جرى افتراضه والتعامل على اساسه خلال سنوات الحرب العراقية الإيرانية بوجه اخص . وينبغي ان نفرق في هذا الصدد بين تيارات أو مدارس ثقافية أو سياسية تبني هذا الموقف في ظرف تاريخي معين أو على الدوام ، وبين كون تلك التيارات حاكمة لعلاقات الطرفين التزاماً بمسلك تاريخي معين .

فلستنا نعدم اشخاصاً أو جماعات على هذا الطرف أو ذاك تلبستهم العصبية العرقية ، لكنهم كانوا في الماضي ، ولايزالون في الحاضر ، استثناءً وشذوذًا يثبت القاعدة ، التي لا تنهض فيها فكرة الصراع العربي الإيراني على أي أساس .

#### (ب) العروبة والإسلام : معركة وهمية

هذا الافتراض إذا أردت له أن يناقش ، فينبعى أن يكون إطاره التاريخي محصوراً في مرحلة ما بعد الثورة الإسلامية في إيران . لأن إيران ما قبل الثورة يتعدى تصنيفها في مربع الإسلام الذي يصارع العروبة ، وقد مر بنا تواً كيف أن نظام الشاه كان معادياً للانتماء الإسلامي ومعرضًا عليه .

والأمر بهذه الصيغة يلغى على الفور امكانية اعتبار اشكالية العلاقات العربية الإيرانية ذات أدنى صلة بمسألة العروبة والإسلام . اللهم إلا إذا حصرنا البحث في علاقة العرب بالثورة الإسلامية في إيران ونظامها السياسي القائم في الوقت الراهن .

نعم لقد سعت بعض النخب الثقافية إلى تجديد الحوار حول العروبة والإسلام في أعقاب نشوب الحرب العراقية الإيرانية في محاولة لاثبات التناقض أو التعارض أو من قبيل التعبئة السياسية المفهومة . وتم ذلك خلال العديد من الندوات التي عقدت بين القاهرة وعمان وبيروت ، وعبر كتب عدة صدرت في تلك الفترة (١٣) .

غير أن العلاقات العربية الإيرانية لم تبرز كقضية في هذا السياق ، وإنما ظل الحوار مجرد ومنصبا بالدرجة الأولى على علاقة الإسلام والعلمانية والحركة القومية على عمومها .

ومن الناحية التاريخية فان المناقشات التي جرت حول الموضوع في اوائل القرن بين الجامعية الإسلامية والجامعة العربية ، لم تكن ايران طرفا فيها ، وإنما كانت تركيـا هي المحور الاساسـي في المعاـدة ، اذاـرادـت بعض العـناـصـر التـحلـل من الارـتبـاط بالـخـلـافـة العـثـانـيـة لـسـبـب اوـآخـر . وـسوـاء تم ذـلـك تـحـت ضـغـوط تـيـار التـغـرـيب اوـ اـرـسـالـيـات التـبـشـير اوـ التـيـار القـومـي الرـافـض للـتـرـيك ، فـان اـیرـان لم تـرـدـ في اـى نـقـطـة من تـلـك الخطـوط ، لاـ في الـبـدـء ولاـ في الـمـنـتـهـى .

والـأـمـرـ كذلك ، فـلاـ محـلـ لأنـ تـأـخـذـ هـذـا الـافتـراضـ مـأخذـ الجـدـ ، لاـ منـ الـمـنـظـورـ التـارـيخـيـ : حيثـ كانـ الـإـسـلـامـ اـبـداـ هوـ وـعـاءـ الـعـروـبةـ وـحـاضـنـهاـ ، وـلاـ منـ الـمـنـظـورـ الـفـكـرـيـ حيثـ الـافـتـعالـ واـضـحـ وـمـحاـولةـ التـوـظـيفـ السـيـاسـيـ مـكـشـوفـ أـمـرـهاـ ، فـلاـ بـحـالـ لـاصـطـنـاعـ مـعـرـكـةـ بـيـنـ الـانتـسـاءـ الـدـينـيـ وـالـعـرـقـ . فالـاتـسـاءـانـ يـمـكـنـ انـ يـتـعـاـيشـاـ وـيـتـدـاخـلـاـ دونـ اـىـ تـنـاقـضـ ، إـلاـ إـذـاـ تـبـنـيـ المـوـقـفـ الـعـرـوـيـ مـحتـوىـ فـكـرـيـ وـفـلـسـفـيـ يـنـاهـضـ الـإـسـلـامـ أوـ يـشـبـكـ معـهـ . اـمـاـ التـوـظـيفـ السـيـاسـيـ فـيـدلـ عـلـيـهـ تـجـديـدـ الـمـنـاقـشـةـ حـولـ الـإـسـلـامـ وـالـعـرـوـةـ بـعـدـ الـحـربـ الـعـرـاقـيـ إـيـرانـيـةـ تـجـديـدـاـ رـغـمـ اـنـ الـمـلـفـ ظـلـ مـغـلـقاـ طـوـالـ نـصـفـ قـرنـ تـقـرـيـباـ . لـذـاـ سـنـعـبـرـ هـذـهـ النـقـطـةـ إـلـىـ الـافتـراضـ التـالـيـ مـباـشـةـ .

### (ج) السنة والشيعة : الفرض المستحيل

هنا نذكر بعدها أمور نخسها حاسمة في التعامل مع ذلك الفرض :

- فالشيعة الائتني عشرية مذهب يتسمى إليه مائة مليون مسلم على ما هو شائع - ٤٠٪ منهم فقط يسكنون إيران ، والباقيون موزعون على بعض الدول العربية والآسيوية .
- وفي بعض الدول العربية يمثل الشيعة أغلبية السكان ، مثل العراق ، ورغم غياب احصاءات دقيقة عن التوزيع المذهبي للسكان ، إلا أن المستقر في الأوساط الأكاديمية أن الشيعة يتجاوز عددهم ٥٥٪ من سكان ذلك القطر العربي ، وهو ما اسفر عنه الاحصاء السكاني الذي اجرته الإداره البريطانية عام ١٩١٩<sup>(١٤)</sup> – ونسبة الشيعة في الخليج – خاصة الكويت والبحرين ودبي – تتراوح بين ٢٠٪ - ٤٠٪ .
- على صعيد آخر فان أكثر ضحايا الحرب العراقية الإيرانية ، كانوا من السنة على الجانب الإيراني ، ومن الشيعة على الجانب العراقي . فمناطق الصراع على الحدود الجنوبية يسكنها على الجانب الإيراني جماعات من أهل السنة في خوزستان (الأهواز) ، كذلك المناطق الحدودية الشمالية ، التي يسكنها الأكراد السنة أما على الجانب العراقي ، فكانت المناطق الحدودية سكانها من الشيعة !
- من الناحية التاريخية فإن أغلبية سكان بلاد فارس كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة ، حتى تم تشيع إيران في بداية القرن السادس

عشر الميلادي ، في عهد الصفويين . وقد كان العرب - بالمناسبة - هم الذين نشروا المذهب الشيعي في البلاد الإيرانية ، إذ شاعت مفارقates القدر ان يتخذ قرار تشيع إيران ملك من قبيله تركمانية الأصل - الشاه إسماعيل الصفوي - وان يعم قراره بلاد فارس بأسرها . وان يقوم بالتنفيذ عرب ، قدر عددهم بحوالي ١٢٠ داعية ، من جبل عامل في لبنان والكرك في الأردن ، والقطيف في الجزيرة العربية<sup>(١٥)</sup> .

يصور البعض الحرب الطويلة بين الصفويين والعثمانيين التي جرت في القرن السادس عشر ، بحسبانها صراعا سنيا شيعيا ، وهى لم تكن كذلك فيحقيقة الأمر ، رغم المعاناة التي لقيها السنّة في ظل الحكم الصفوي ، الذى اراد فرض التشيع بالقوة على الجميع إذ الاتجاه السائد بين الباحثين المنصفين انها كانت صراعا على السلطة والهيمنة بين الدولتين ، تمثل في محاولة بسط النفوذ على وادى الرافدين (العراق حاليا) وهو صراع ازكه بريطانيا ودول الاستعمار القديم ، حيث اسهم هؤلاء بالتسلیح والتنسيق مع الصفويين ، بهدف ضرب الامبراطورية العثمانية واضعافها ، بينما كانت جيوشها تزحف على أوروبا ، وتتأهب لخصار فيها .<sup>(١٦)</sup> ناهيك عن ان المرحلة الصفوية في محملها موضع نقد شديد من بعض مثقفي الشيعة ، الذين تبرأوا في كتاباتهم من الممارسات التي نسبت إلى المذهب في تلك الفترة ، حتى اطلق الدكتور على شريعتي - المفكر الإيراني المعروف - تلك

التفرقة بين ما اسماه بالتشيع الصفوی ، والتشيع العلوی<sup>(١٧)</sup> .

- لابد ان يلاحظ في هذا السياق ان سبعة من ائمة الشيعة الإمامية في بلاد العرب (العراق) . فضلا عما اشرنا إليه من قبل من ان إماماً المذهب وشرعية الحكم عند الشيعة محصورة في الهاشميين القرشيين الأمر الذي يتعدى في ظله تفسير اشكالية العلاقة الإيرانية العربية على اساس مذهبي .

#### (د) حسابات المصالح ودور الاستعمار :

الافتراض الرابع يستحق ان نطيل الوقوف عنده ، لأن شواهدہ تکاد تفسر الاشكالية ، وتقودنا إلى تحديد بيت الداء وأس البلاء . ذلك ان استعراضنا لمسار العلاقات السياسية بين إيران والدول العربية المجاورة لها يكشف لنا عن أهمية الدور الذي لعبته المصالح السياسية في اثارة الاشكالية أو تجاوزها وفضها .

سنركز في هذا الشق على ثلاثة عناصر نحسبها ذات أهمية خاصة .

**العنصر الأول :** يتمثل في ان مشكلة الحدود بين إيران وجيرانها العرب كانت على الدوام مصدراً للخلاف والاشتباك ، الذي لم يكن موجهاً إلى « جنس » العرب ، ولكنه طرفه الآخر هو بعض الدول العربية المجاورة .

**العنصر الثاني :** هو ان القوى الاستعمارية ، والإنجليزية في المقدمة

منها كان لها دورها الذى لاينبغى اغفاله ، في اذكاء الصراع وتعويقية  
بمختلف الوسائل والخيل .

العنصر الثالث : هو ان استبعاد العنصر العرق أو القومى كسبب  
للخلاف ، وتركيزه في محيط المصالح فتح الباب لتزاوج تلك المصالح  
بين احتلالات الشناق والوفاق . فحيث تعارضت المصالح ثارت  
المشاكل وتفجر الخلاف ، وحيث تلاقت طويت صفحة الخلاف  
وتحقق التعاون والوثام .

لنا حاول تقليل صفحات الملف ، مهتمين باحداث التاريخ  
ووقائعه .

لقد احتلت إيران بغداد في عام ١٥٠٧ م ، ولكن العثمانيين سيطروا  
عليها مرة أخرى عام ١٥٣٤ . ومنذ أوائل القرن ١٦ وإلى سقوط الدولة  
الصفوية عام ١٧٢٢ ، كانت العلاقة بين الصفوين والعثمانيين هي  
علاقة حروب ومحاولات سلام ، جرت معظمها على وحول ارض  
العراق الحالي . ولكن في العام ١٦٣٩ فقط ، جرى بحث المشكلة  
الحدودية بشكل محدد . والثابت ان المشاكل الحدودية التي ثارت بين  
الدولتين منذ ثلاثة قرون هي ذاتها التي أثيرت أثناء الحرب العراقية  
الإيرانية سنة ١٩٨٠ م .

بين صفحات الملف ، تواجهنا الحقائق التالية :

- ان العراق بصورته الحالية لم يكن موجودا آنذاك كوحدة سياسية او  
إدارية مستقل بذاتها . فقد كانت الموصل وبغداد والبصرة ولايات

تابعة للدولة العثمانية رغم ان بغداد تمنتت بوضع خاص كمركز للولايات الأخرى . غير ان انتصار بريطانيا وحلفائها على الألمان والعثمانيين بعد الحرب العالمية الأولى ، اسفر عن فصل وانتزاع العراق وفلسطين وشرق الأردن وشبه الجزيرة العربية وسوريا ولبنان عن الامبراطورية العثمانية . وقد وضع فلسطين والعراق وشرق الأردن تحت الحماية البريطانية ، ولكن الشعب العراقي ثار على الحماية البريطانية فيما عرف بـ « ثورة العشرين » ، فانصاع الحكم البريطاني ورشح فيصل بن الحسين الذى كان قد نصب ملكاً على سوريا ، ليكون ملكاً على العراق ، وتولى منصبه في عام ١٩٢٠ م ، حيث سمي الملك فيصل الأول .

- قبل تأسيس المملكة ، وعندما كانت الولايات الخاضعة للحكم العثماني هي التوزج القائم ، لم تكن الحدود بين تلك الولايات واراضي الدولة الفارسية متفقاً عليها ، ولا كانت مخططة بشكل مكتوب أو في خرائط . فالحدود العثمانية الصفوية لم تكن حصيلة خلافات حدودية أو ادعاءات متناقضة حول تحديد ما للمحدود . وإنما كانت صراعات على مستوى إقليمي ( حول النفوذ الإقليمي وادعاء الولاية على البلاد الإسلامية ) . وقد كانت الدولة الإيرانية تطمح في السيطرة على بغداد والمدن المقدسة في العراق . وكذلك ممارسة نوع من الحماية أو الوصاية على شيعة العراق .
- في اتفاقيات المهدنة والسلام التي عقدت بين الدولتين في أعوام

١٥٥٥ و ١٥٩٠ و ١٦١٣ و ١٦١٨م ، جرت محاولة تنظيم الدعاوى المتعلقة بحقوق شيعة إيران في زيارة الاماكن المقدسة ، والمطالب الإيرانية الأخرى المتعلقة باوضاع شيعة العراق - بينما لم يحرى بحث وحل اية مشاكل حدودية . واعتبارا من معاهدة « زهاب » ١٦٣٩ بين الصفوين والعلمانين ، جرى تحديد مناطق النفوذ والسيطرة بين الدولتين ولم يبحث موضوع الحدود كخط يفصل بين اراضيها . وظلت تلك المعاهدة مرجعا لجسم كثير من الخلافات الحدودية في المائتى سنة التالية .

- في اوائل القرن التاسع عشر تصاعدت المناوشات بين إيران والدولة العثمانية ، فاحتلت بغداد في عهد نادر شاه الأمر الذي أدى إلى توقيع اتفاقية عرفت باسم اتفاقية ارضروم الأولى سنة ١٨٢٣ م ومن بين مانصت عليه ما يأتى :

- عدم تدخل إيران في الشؤون الداخلية لولاية بغداد ومناطق كردستان .

- حق الإيرانيين في اداء فريضة الحج في الحجاز ، وزيارة العتبات الشيعية المقدسة في العراق .

وكانَ الدُّولَةُ العُثْمَانِيَّةُ قدْ مَنَعَ الْإِيرَانِيِّينَ مِنْ الْحَجَّ لِعَدَّةِ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ.

- تنظيم حقوق الرعى بالنسبة للقبائل الرحيل التابعة لسيادة الدولتين .

• ظلت الاتفاقيات القديمة بين الإيرانيين والعثمانيين تحدد مناطق السيادة دون خطوط الحدود الدولية ، الأمر الذي لم يحل دون الاشتباكات العسكرية وحالات الاحتلال الأرضي ، التي كانت تدور مع موازين القوى بين الدولتين ففي عام ١٨٣٧م احتلت إيران منطقة السليمانية كما هددت باحتلال الكويت والبحرين .

وكان القرن التاسع عشر قد شهد تصاعداً في النفوذ الاستعماري ، خاصة لنفوذ روسيا وبريطانيا في المنطقة ، حتى عرف ذلك القرن في التاريخ الإيراني بعهد الامتيازات ، لكثرة ما حصلت عليه القوى الاستعمارية المختلفة من امتيازات سياسية واقتصادية في البلاد . وفي أواسط القرن أصبحت إيران منطقة نفوذ روسية بينما عززت بريطانيا «العظمى» نفوذها في مناطق الدولة العثمانية ، وقتذاك تدخلت الدولتان لفرض اتفاقية جديدة تضمن لها حرية الملاحة في شط العرب ، نهر كارون ، وتحفظ امتيازاتها في إيران والعراق ، بعدما أصبحت الصراعات المسلحة بين إيران والدولة العثمانية تهدد استقرار المصالح الأوروبية في المنطقة .

ومن بين مانصت عليه اتفاقية أرضروم الثانية ، التي وقعت بتدخل من الدولتين الاستعماريتين ، إعادة مدينة المحمرة ومقاطعة الاهواز للسيادة الإيرانية ، وعودة السيادة العثمانية على منطقة السليمانية ، وتنظيم الملاحة في شط العرب بحيث تعطى السفن الفارسية حق المرور عبر ذلك الممر المائي - ثم تشكيل هيئة رباعية من ممثلين إيران والدولة

- العثمانية وروسيا وبريطانيا للإشراف على التخطيط النهائي للحدود .
- منذ عقد اتفاقية ارضروم الثانية صار للدول الكبرى دوراً معترفاً به وكلمة مسموعة في الخلافات الإيرانية العثمانية . غير ان اكتشاف البترول في ايران عام ١٩٠١م واعطاء امتياز استئجاره لبريطانيا ، اجج صراعها مع روسيا على النفوذ في ايران ، حتى اتفقت الدولتان اخيراً على تقسيم مناطق النفوذ في ايران بينهما ، بحيث ترکز النفوذ البريطاني في الجنوب والروسي في الشمال وجرى التنسيق بينهما حتى نص في «برتوكول طهران» لعام ١٩١١م ، على انه إذا لم يتفق ممثلو الدولتين العثمانية والإيرانية على انه في اي خلاف بينهما ، يجب عليهما ابلاغ وجهى النظر إلى ممثل كلٍّ من بريطانيا وروسيا ، ويعتبر قرار هؤلاء ملزماً للدولتين المتخاذلتين . وبهذا تم الاعتراف بالوصاية الأجنبية الكاملة على مشكلة الحدود في وثيقة رسمية .
  - في اعقاب سقوط الدولة العثمانية ، ونشوء نظام إقليمي جديد بعد الحرب العالمية الأولى فتح الباب مرة أخرى لتجدد الخلافات العراقية الإيرانية (كانت اللجنة الرباعية قد قامت في سنة ١٩١٤م بوضع علامات الحدود على كافة حدود البلدين) . فخلال الحرب ذاتها - في سنة ١٩١٦ - اتفقت بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية في معاهدة «سايكس - بيكر» على تقسيم مناطق النفوذ على اراضي الدولة العثمانية ، وقد احتلت بريطانيا العراق ثم فرضت نفسها كدولة منتده من خلال اتفاقيات الصلح في باريس تحت غطاء

عصبة الأمم ، واستمرار الانتداب حتى عام ١٩٣٣ ، رغم اعلان العراق دولة مستقلة سنة ١٩٢٢ م .

• بعد قيام الدولة العراقية رسميًا انهارت إيران حداثة مولدها وهشاشة وضعها وطالبت باعادة النظر في قرارات لجنة تحديد الحدود لعام ١٩١٤ م بحجة ان الضغوط الخارجية قبل الحرب الأولى هي التي جعلتها توقع الاتفاق ، وبناء على ذلك رفضت إيران الاعتراف بالعراق الحديث ، والاعتراف بكونه وريثا قانونيا لإرث الدولة العثمانية .

• في تلك المرحلة كان رضا خان قائد الجيش قد قام بانقلاب وتسلم الحكم في إيران عام ١٩٢١ م ثم صار ملكاً أو شاه اعتباراً من ١٩٢٥ م . وببدأ يعمل على احياء القومية الإيرانية من خلال بعث امجاد فارس القدية ، والابتعاد عن تراث الإسلام الذي يربط إيران بالعرب . وبهذا أرسى أساساً جديداً للصراع مع جيرانه .  
• حاول شاه إيران الجديد إقامة علاقات ودية مع جيرانه مبتدئاً بالعراق ، وذلك بناء على توصية من وزارة الخارجية الإيرانية . ولأجل ذلك قررت إيران توسيع قنصلياتها في العراق ، إلا أن الانجليز تدخلوا وعارضوا ذلك الاتجاه . وجاء في ردتهم على طلب إيران لتأسيس قنصلية في مدينة السليمانية على لسان الكابتن « هولت » بالنيابة عن المندوب السامي البريطاني ( بتاريخ ١٨/١٩٢٨ م ) « إن هذا الطلب غير ممكن في الوقت الراهن » .

وكانت تلك اشارة إلى الدور البريطاني الساعي إلى اقامة الحواجز بين إيران والعراق ، رغم ان علاقات البلدين كانت تمر بظروف معقدة سواء على صعيد الحدود ، أو بسبب قانون الجنسية العراقية الذي صدر في سنة ١٩٢٤م وادى إلى توتر في علاقات البلدين – وهو ظرف كان يقتضي توسيع قنوات الوصل والتفاهم بين الطرفين .

- كانت الدول الغربية وبريطانيا في المقدمة ، معنية باقامة حلف في المنطقة يخدم مصالحها ويعادي السوفيت . ولهذا سعت بريطانيا إلى توقيع اتفاقية جديدة بين إيران والعراق سنة ١٩٣٧م ، اعترف فيها بالطلب الإيراني حول مناصفة السيادة في شط العرب وعلى اساس تواافق المصالح الإقليمية والدولية ، استطاعت الدولتان تجاوز الخلافات ، ونجح البريطانيون في ضمها إلى حلف « سعد أباد » ( وهي إحدى ضواحي شمال طهران ) ، الذي كان بمثابة أول صياغة لتحالف يجمع بين إيران والعراق وتركيا وافغانستان ، تحت الرعاية البريطانية . وصدر ميثاق « سعد أباد » الذي فتح صفحة جديدة في علاقات طهران وبغداد .
- اتسمت العلاقات الإيرانية العراقية بالتصالح والتعاون المشترك طوال العشرين عاما التالية ، أى حتى سقوط النظام الملكي في بغداد سنة ١٩٥٨م .  
في هذه الفترة ، تم توقيع ٧ اتفاقيات تفصيلية بين البلدين

نظمت عديداً من أوجه العلاقات التجارية وقوانين الجنسية والإقامة.

- في عام ١٩٥٥ ، وفي ظل ظروف إقليمية جديدة كان انتصار ثورة يوليو المصرية عام ١٩٥٢ أهم ملامحها جرى إنشاء «حلف بغداد» الذي ضم العراق وإيران وتركيا وباكستان وبريطانيا. بمساهمة من الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت هذه أول مرة تساهم فيها الولايات المتحدة في حلف إقليمي بالمنطقة ، وذلك بعد أن بدأت تلعب دور القوة العظمى فيها وتسلّم زعامة الكتلة الغربية على حساب بريطانيا وفرنسا ذلك في الوقت الذي كان الاتحاد السوفيتي يتطور في علاقته بسوريا ومصر.
- بقيام ثورة تموز ٥٨ في العراق ، وسقوط النظام الملكي الموالي للغرب ، بدأت مرحلة جديدة من التوتر بين البلدين ، تخللتها فترة قصيرة من التحسن بين عامي ٦٦ و١٩٦٨ ، وبعد استيلاء حزب البعث العربي الاشتراكي بالعراق على السلطة في تموز ٦٨ ، اشتد التوتر مرة أخرى فاعتلت إيران فسخ اتفاقية عام ١٩٣٧ .
- إثر إنشاء حلف بغداد في سنة ١٩٥٥ ، صارت مصر الثورة طرفاً في الصراع ضد إيران ، لا إيران الفارسية ، ولا إيران الشيعية ، ولكن إيران التي أصبحت تمثل قاعدة للتحالف الغربي ، المناهض للثورة المصرية التي كانت في حالة مواجهة مع الهيمنة الغربية في المنطقة .
- مع استسلام حزب البعث العربي الاشتراكي ذو الطموحات القومية

والإقليمية للسلطة في العراق عام ١٩٦٨ ، حدث تحول مهم في وضع الدول الكبرى بالمنطقة ، إذ بدأت بريطانيا تنسحب من الخليج وبحر العرب ، وذلك كمحصلة لتنامي قوى التحرر الوطني في المنطقة ، وكذلك للتوازنات الجديدة في القوى بين الدول الكبرى . فاشتد بذلك تنافس القوى الإقليمية وكذلك الدولتين العظميين في ملء « فراغ القوة » الذي كان سيترتب على الانسحاب البريطاني . وبرزت على الجانبيين - إيران والعراق - اتجاهات الهيمنة الإقليمية . لتصبح مع الوقت أهم عامل في الصراع الإيراني .<sup>(١٨)</sup>

- ارتبطت اتجاهات الهيمنة هذه بسياسات القوتين العظميين والعلاقة معها ضمن استقطاب متزايد فقد أصبحت إيران الحليفة الثانية بعد إسرائيل للولايات المتحدة ، وتطورت في السبعينيات بدعم أمريكي وبفضل عائدات النفط الضخمة إلى إحدى أكبر القوى المالية والعسكرية في الشرق الأوسط ، وثانية قوة في المحيط الهندي بعد الهند . وكان دور الشاه كشرطى للخليج يتلخص في حراسة المصالح الحيوية الإقليمية للغرب في المنطقة ومحاربة الحركات الثورية .  
● ضمن تطلعات الهيمنة ، كانت للشاه دعاویه في امتلاك امارة البحرين ، التي ذهب في التعبير عن ذلك إلى حد اختياره ممثل للبحرين في البرلمان الإيراني ، ولكن الضغوط البريطانية والأمريكية حملته على التنازل عن مطلبها ذلك في عام ۱۹۷۰م . لكنه عوضا

عن ذلك دفع بقواته لاحتلال الجزر الثلاث أبو موسى وطنب الكبرى والصغرى ، التابعة لامارق الشارقة ورأس الخيمة ، في دولة الامارات العربية . وتم الاحتلال في أول نوفمبر في عام ١٩٧١ م ، قبل يوم واحد من انسحاب القوات البريطانية من الخليج<sup>(١٩)</sup> .

• وإلى جانب الثورة الفلسطينية التي اضافت زخماً ثورياً هائلاً في كيان المنطقة ، كانت حركة المقاومة المسلحة في إقليم ظفار ، بدعم صيني وعربي تشكل مصدراً لقلق حكومات المنطقة . وقد ساهم الجيش الإيراني مباشرة في قمع هذه الحركة بين عامي ٧٢ و ٧٣ . إذ عرف أن فرقة مدرعة وفرقة مظلات من الجيش الإيراني اشتركتا في الهجوم على ثوار ظفار .

• في إطار التنافس على أدوار الهيمنة كان العراق يحاول التقدم في الخليج فبدأ منذ عام ٧٣ في محاولة امتلاكه أو استئجار جزيري وربه وبوبيان من دولة الكويت ، وقوبل الطلب بالرفض ، وقبل ذلك ، في عام ١٩٦١ م ، تحدث العراق عن تطلعات له في الكويت ذاتها ، واعتبرها الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم جزءاً من قضاء البصرة ، ولكن سعيه لم ينجح ، بعد أن تصدى الرئيس عبد الناصر لدعوته تلك ، وحال دون استيلائه على الكويت ولكن الرئيس صدام حسين قام بتلك المغامرة في أغسطس ١٩٩٠ م . • استمر الصراع والتنافس بين إيران والعراق ، حول قضايا الحدود

والهيمنة حتى عام ١٩٧٥ م . حيث تم التوصل إلى حلول لمشاكل الحدود وقضايا التعاون الأمني خلال اتفاقية الجزائر التي عقدت في عام ١٩٧٥ . وهي الاتفاقية التي حاول العراق الغاءها بالحرب التي شنتها على إيران في عام ١٩٨٠ ، عقب انتصار الثورة الإسلامية . لكن القيادة العراقية عادت وافقت الاتفاقية التي في عام ١٩٨٠ ، أثر احتلالها للدولة الكويت .

• بعد انتهاء الحقبة الناصرية (سبتمبر ١٩٧٠ م ) ، دخل التعاون الإيراني العربي مرحلة جديدة . إذ تجددت العلاقات الحميمة بين إيران وبعض الدول العربية وفي مقدمتها مصر السادات . وعرف بعد الثورة الإسلامية أن إيران أقامت مع بعض الدول العربية مصافاً إليها فرنسا ، تعاوينا على الصعيد الأمني لتنفيذ مهام محددة في دول العالم الثالث ، على رأسها مقاومة الشيوعية في مشروع اطلق عليه اسم «نادي السفارى» ، وعثر في وثائق الساواك - المخابرات الإيرانية - على نص الاتفاق بين الدول الخمس المؤسسة للنادي وبينها الدول العربية الثلاث : مصر وال سعودية والمغرب .<sup>(٢٠)</sup>

## ٦ - طبيعة سياسية - لا قومية ولا مذهبية :

هذا السجل يقودنا إلى مجموعة من المؤشرات المهمة في العلاقات الإيرانية العربية : إذ كان محور المشكلات المثارة دائماً هو الحدود والنفوذ . وبالتالي فهي لا تخرج ضمن صراع قومي : عربي فارسي ولا

شيئي سني ، وإنما ضمن صراع سياسي استراتيجي ، خصوصا في العقود الأربع الأخيرة ، التي شهدت عصر سياسة الأحلاف وتنامي قوى حركة التحرر الوطني وتيار الوحدة العربية في المنطقة .

فحلف بغداد الاستعماري الذي أقيم سنة ١٩٥٥ م كان العراق من أعمدته الرئيسية إلى جانب إيران ثم وقفت إيران موقفاً معادياً لقيام الوحدة بين سوريا ومصر سنة ١٩٥٧ ، لكنها دعمت وايدت الاتحاد الهاشمي العراقي الأردني ، الذي قام موازنة الوحدة . بذلك تشكلت منذ نهاية الخمسينيات ملامح صراع إقليمي من نوع جديد : تيار الوحدة والتحرر من الاستعمار بقيادة مصر الناصرية من جهة والتيار الموالي للغرب الذي ضم إيران ودولًا وقوى عربية عديدة من جهة أخرى <sup>(٢١)</sup> .

لقد تعاون حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق مع إيران في السبعينيات ضد الثورة الكردية المسلحة ، ومر بنا أن إيران اشتركت مع سلطنة عمان في قمع ثورة ظفار في بداية السبعينيات ، في ظل صمت عربي أو موافقة وشىء من الضجيج الإعلامي . وكانت إيران إحدى الدول التي قدمت دعماً عسكرياً للملكين في اليمن ، اثناء حربهم ضد الجمهوريين المدعومين بالثورة المصرية ، واستمر ذلك الدعم طوال الفترة ما بين عام ٦٢ و ٧٠ ، وكانت الدول العربية المجاورة عارفة به ومبركة له <sup>(٢٢)</sup> . وفي المرحلة السادسة اتسع نطاق التعاون الاقتصادي والثقافي ، فضلاً عن السياسي ، كما سُنّى بعد قليل . توقيع اتفاقية

الجزائر في عام ١٩٧٥ ، وحتى قيام الثورة الإسلامية في ١٩٧٩ ، كانت العلاقة بين طهران وبغداد ناجحة إلى حد كبير ، وقد توجت تلك العلاقة بزيارة قام بها نائب الرئيس العراقي آنذاك صدام حسين ، لطهران في نهاية إبريل وأول مايو ١٩٧٥ ، التقى خلالها بالشاه وتم الاتفاق على دفع عجلة التعاون بين البلدين .

إننا لأنكاد نجد في السجل - وخصوصا في العقود الأربع الأخيرة - اشتباكا أو تصادما عربيا إيرانيا إلا بقدر ما كانت ايران حليفة للغرب والولايات المتحدة خصوصا ، وإنما من حيث بروز إيران كقوة إقليمية تطمع للهيمنة على الخليج منذ نهاية السبعينيات ، وحتى في هذا المجال كانت ايران تصطدم بدول عربية معينة : العراق بين ٦٩ و ٧٥ ، أو مصر تحت قيادة عبد الناصر كمركز لحركة التحرر العربي ، بينما حافظت ايران على علاقات التعاون والود مع العدد الأكبر من الدول العربية .

في هذا الصدد ينبغي أن نلاحظ بأن المرحلة الناصرية التي شهدت اشتباكا سياسيا واعلاميا قويا مع نظام الشاه في ايران شهدت في الوقت ذاته نشاطا نسبيا للدعوة للتقارب بين المذاهب ، السنة والشيعة خاصة . كما اقامت الدولة والقوى السياسية الإسلامية (الاخوان المسلمين) علاقات طيبة مع شخصيات ايرانية ، من امثال نواب صفوی الذي كان عضوا بارزا في منظمة « فدائیان اسلام » . وقد زار صفوی مصر

وخطب في جامعة القاهرة . اضافة إلى الحفاوة الملموضة التي احاطه بها الاخوان .

على الجانب الآخر ، فان « اظهار الود والتأييد لمصر » ، كان من التهم التي وجهت لمهدى بازركان وآية الله الطالقانى وقادة حركة تحرير ايران ، في المحكمة العسكرية التى قدموا لها سنة ١٩٦٤ وهو ما يعد دليلا آخر على ان الصراع السياسى والاستراتيجى ذو الابعاد الدولية والاقليمية آنذاك لم يتخد طابعا قوميا أو مذهبيا .

ولعل اذهب إلى أن العلاقات الإيرانية المصرية تكاد تجسد حقيقة العلاقات العربية الإيرانية . عميقـة الجذور والخالية من العقد والحساسيات ، الحميمـة كقاعدة ، والمتأثرة سلباً وایيجاباً بتقلبات الواقع السياسي وحساباته ، التي لا شأن لها بالعرق أو بالذهب . وهي لهذا السبب تستحقـ منا تحقيقـاً خاصـاً ، نختبرـ من خلالـه بعضـ الذي قلناـه . اختـرنا مصرـ ليس فقط لأنـها تمثلـ نصفـ الأمةـ العربيةـ فيـ الماضيـ كماـ فيـ الحاضـرـ ، ولكنـ أيضاـ لأنـهاـ منذـ التـقـتـ معـ إـيرـانـ عـلـىـ «ـالـانتـماءـ»ـ إـلـىـ الـاسـلامـ ، اـنـقـلـتـ عـلـاقـاتـ الـبلـدـيـنـ مـنـ طـوـرـ إـلـىـ طـوـرـ . مـنـ صـرـاعـ الـقوـىـ الـكـبـرـىـ إـلـىـ رـحـابـ أـخـوـةـ الـإـيمـانـ . ثـمـ عـنـدـماـ تـشـيـعـتـ إـيرـانـ وـ«ـتـسـنـتـ»ـ مـصـرـ ، لـمـ يـغـيـرـ ذـلـكـ مـنـ الـأـمـرـ شـيـئـاـ ، وـإـنـماـ كـانـ السـعـىـ دـائـماـ بـيـنـ الـجـانـبـيـنـ لـلـتـلاـقـ وـالـوـفـاقـ عـلـىـ ذـلـكـ الصـعـيدـ ، وـلـمـ يـصـبـحـ الـخـلـافـ الـمـذـهـبـيـ مـصـدـراـ لـلـشـقـاقـ وـلـاـ الـخـلـافـ الـعـرـقـيـ سـبـباـ لـلـخـصـوـمـةـ أوـ الـصراعـ . الـمـشـكـلـةـ دـائـماـ كـانـتـ فـيـ الـخـلـافـ الـسـيـاسـيـ - وـإـنـماـ جـرـتـ فـيـ

مصر محاولة للتعامل مع ذلك الخلاف بحسبانه نوعا من التراث الفكري واللغوي ، وهو عين ما جرى في عموم التجربة الإسلامية .  
لتحاول تقليل صفحات ذلك الملف .

( ٢ )

## مصر : شهادة التاريخ والواقع

ما بين إيران ومصر بعد ما يتصور كثيرون . فختلف المراجع التاريخية تشيران تلك العلاقات بدأت في عصر الأنجيبيين ، على عهد الملك قورش الأول (القرن 7 ق . م ) . وثمة دلائل على ان الصلات كانت واسعة نسبيا بين بلاط قورش وفرعون مصر . إذ ذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت أن قورش « شاهنشاه إيران » (ملك ملوك إيران ) طلب من فرعون مصر « أمازيس » ان يبعث إليه بأشهر اطباء العيون في بلاده . لبى الفرعون الطلب وارسل الطبيب المصري إلى البلاط الإيراني ، حيث بق هناك حتى خلف « كموجيه » (المعروف في مصر باسم « قبيز ») والده قورش الكبير على العرش .

روى هيرودوت أن « كموجيه » (قببيز) خطب ابنه أمازيس فرعون مصر ، بتشجيع من الطبيب المذكور - ثم قام بعد ذلك بغزو مصر عن طريق سيناء ، واحتل « هيفيس » عاصمة البلاد في عام ٥٢٥ ق . م - تنفيذاً لطموح أبيه الذي تخلى ضم مصر إلى إمبراطوريته . في ذلك العصر ، كانت العلاقات بين إيران ومصر متاثرة بالصراع الذي كان قائماً بين إيران واليونان ، والمنافسة بين الإمبراطوريتين على

السلطان والملك . غير ان ظهور الاسكندر المقدوني فيما بعد ( ٣٥٦ - ٣٢٣ م ) ثم هيمنة الدومن على منطقة البحر المتوسط . قضى على المنافسة القديمة على مصر بين ايران واليونان . ( ٢٣ )

جمع قبیز عددا من العمال الفنانین المصریین واوفدهم إلى ایران ، فعقد بذلك صلة هامة بين حضارة البلدين . وفي المقابل قدم إلى مصر الفنان الايراني « دارا » ، الذى وجه اعظم العناية للنحت والمعمار . فاقام ورمي المباني العامة في وادى النيل وواحة آمون ، واتم مشروع شق قناة تصل احد فروع النيل في شرق الدلتا ببياه البحر الأحمر . وكان ذلك يتم بسواعد مصرية وإيرانية ( ٢٤ ) .

بظهور الاسلام وانتشاره السريع في آسيا وافريقيا . تراجع دور الرومان ، واجتمع البلدان - مصر وإيران - مع غيرهما من شعوب دار الاسلام تحت راية التوحيد ، وبالتالي فقد نسجت العلاقات بينها على نحو مختلف .

اختلط المصريون بالایرانیین في عهد الفاطمیین والایوبیین والمالیک والعثمانیین وقدم إلى مصر كثير من الایرانیین العلماء والمتصوفة . ومنهم من شغل مناصب هامة مثل الليثی بن سعد إمام أهل مصر ، الذى سبقت الاشارة إليه ، وعبد الله بن طاهر ، أحد أفراد الأسرة الطاهرية ، الذى ول مصر من قبل الخليفة المأمون سنة ١١١ هـ . وكذلك ناصر خسرو الشاعر والكاتب والأديب الايراني الذى زار مصر في القرن الخامس الهجري ، في المرحلة الفاطمية ، وألف كتابا هو أهم وادق

ما نشر بالفارسية في وصف مصر، اسمه «سفرنامه» أو كتاب السفر. وكان ناصر خسرو قد زار القاهرة والاسكندرية واسوان. وذكر انه شاهد في مدينة اسيوط - على ساحل النيل - اقشة صوفية نفيسة مصدرة إلى ايران. الأمر الذي يدل على انه كانت هناك علاقات تجارية بين البلدين. (الكتاب ترجمته الدكتور يحيى الخشاب إلى العربية) .

من هؤلاء أيضاً : الشاعر الإيراني العظيم سعدى الشيرازى ، والشاعر الصوفي فخر الدين العراقي ، الذى نصبه السلطان شيخاً لشيخوخ مصر وقد قيل عنه أنه « عديم المثال في الوجد والحال » (الاثنان زارا مصر في القرن السابع الهجرى) .

عندما نشب الصراع بين الصفوين والعثمانيين في القرن السادس عشر ، بادر الشاه إسماعيل الأول مؤسس الدولة الصوفية إلى التحالف مع سلطان مصر آنذاك الأشرف قانصوه الغوري ، ضد الحكومة العثمانية ، وأرسل إليه سفيراً محلاً بر رسالة ودية ، وهدايا ضمت مائتي عبد وجارية من الكرج والتركمان .

وافق الملك قانصوه الغوري على اقتراح شاه إيران ، وأرسل جيشاً قوامه ثلاثين ألف مقاتل من مصر إلى سوريا . إلا أن قوات السلطان سليم العثماني هزمت الجيش . ولقب السلطان نفسه بعد هزيمة الجيش وفتح القاهرة بـ « خليفة المسلمين » .

وابتداء من هذه المرحلة فإن العلاقات الإيرانية المصرية ، كانت

تم من خلال العلاقات السياسية مع العثمانيين والفرنسيين والإنجليز . في القرن الثامن عشر اتفق الإيرانيون والعثمانيون على تبادل السفراء ليتولوا حل الخلافات بين البلدين . وفي منتصف القرن التاسع عشر - في اتفاقية أرضروم الثانية سنة ١٨٤٨ م - أعطيت إيران الحق في فتح قنصليات ترعى مصالحها في مدن الدولة العثمانية ، ماعدا مدينة مكة والمدينة <sup>١</sup>

وعندما حدث خلاف بين التجار الإيرانيين ومديرية الجمارك في مصر عام ١٨٥٦ م . بخصوص التباek الإيراني ، ارسلت السفارة الإيرانية في استنبول الحاج محمد صادق خان إلى القاهرة ، مندوبا لرعاية مصالح الإيرانيين ، وممثلا دائماً بلاده في مصر .

وفي نوفمبر ١٨٦٩ دعت الحكومة المصرية الحكومة الإيرانية لحضور حفل افتتاح قناة السويس وأرسل الشاه القاجاري وفداً برئاسة « معير الملك » لتمثيل بلاده في الحفل .

بعد ذلك بستين قدم السيد جمال الدين اسد ابادي (الأفغاني ) ، من إيران إلى مصر ، حيث التقى مع الإمام محمد عبده ، وقاد الاثنان حركة الاحياء الإسلامية التي مازالت موجاتها تتدافع إلى الآن . وتبين فيما بعد أن محمد عبده تعلم الفارسية واجادها بعد اتصاله بأحد الإيرانيينثناء الدراسة بالأزهر <sup>(٢٥)</sup> .

ويبدو أنه كانت في مصر آنذاك - بداية القرن العشرين - جالية إيرانية معتبرة . لأن هؤلاء أصدروا عدة مجلات بالفارسية . كانت تطبع

بالقاهرة . خاصة بعد ثورة الدستور المعروفة في إيران ( ۱۹۰۶ م ) وكانت مجلاتهم تحمل أسماء مثل : يوروش ( التربية والتعليم ) وحكمت ( الحكمة ) وجهره نما ( المصور ) <sup>( ۲۶ )</sup> .

وظهرت طبقة من الشخصيات المصرية ذات الاباع في عالم الثقافة ، عنيت بجمع المخطوطات الفارسية الموجودة في مصر ، التي كونوا منها خزائن عدة موقوفة بدار الكتب بالقاهرة . ومن هؤلاء احمد زكي باشا وطلعت باشا ومصطفى كامل باشا ، واحمد تيمور باشا ( دار الكتب اصدرت في عام ۱۹۶۷ م فهرسا للمخطوطات الفارسية . ضم دراسة ل ۲۵۴۲ مخطوطة ) .

### مؤشرات المد والجزر :

في تلك المرحلة ، توثقت العلاقات بين القاهرة وطهران ، إلى درجة ادت إلى زواج ولی عهد إیران محمد رضا بهلوی ( الشاه لاحقا ) في عام ۱۹۳۹ م من الأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق ، ملك مصر ، ربما كان « زواج مصلحة » لكنه استمر عشر سنوات ، كانت الأميرة فوزية خلاها ملکة إیران ، وانجذبت بنتا سمیت « شاهناز » .

وفي حقل القرآن ، التي الشيخ المغربي مفتی مصر آنذاك كلمة أعرب فيها عن امله في ان يؤدي ذلك الزواج إلى « التفاهم والسلام الدائم والمتبادل بين طائفتي الاسلام « واضاف قائلاً » ونأمل ان تزول ببركة هذا الزواج الميمون جميع الخلافات والرواسب الناجمة عنها بصورة

نهاية . لقد آن للMuslimين ان يتحدوا » .

ولم يؤد الطلاق الذى اعلن رسميا في عام ٤٩ إلى افساد العلاقات بين البلدين ، رغم ان الملكة فوزيه هى التي طلبته بعد عودتها إلى القاهرة سنة ٤٥ اثر اصابتها بالملاريا وعدم استطاعتتها للحياة في طهران .

في تلك الظروف - عام ١٩٤٧ - تأسست في القاهرة دار التقرير بين المذاهب الإسلامية وكان وراء انشائها أحد العلماء الإيرانيين (الشيخ تقى الدين القمى) ، وعدد غير قليل من علماء الأزهر البارزين (عبد المجيد سليم و محمود شلتوت و محمد المدى و عبد العزيز عيسى ) فضلا عن الشخصيات الإسلامية المعروفة من امثال حسن البنا وأمين الحسيني واللواء صالح حرب و محمد على علوية باشا . عنبرت « الدار » بفتح باب الحوار بين السنة والشيعة ، و بذلك في هذا المضمار جهدا طيبا ، اسفر عن انشاء مجلة « رسالة الاسلام » التي كانت ساحة للتتفاهم بين علماء الجانبيين ، والاتفاق على اعتقاد تفسير « الطبرسى » كتفسير للقرآن يمكن قبوله بين السنة والشيعة .

وكان أهم ما في الأمر كان التوجه بحمد ذاته . اعني بمحرى التقرير الذي تم شقه ، ورفع « الحاجز النفسي » بين الطرفين . وكان من ثماره تلك الفتوى التي اصدرها الشيخ شلتوت ، بعدما صار شيخا للأزهر في سنة ٥٨ ، بالاعتراف بالمذهب الجعفري ( نسبة إلى الإمام جعفر الصادق ) أو الشيعي الاثنى عشرى ، بحسبانه احد المذاهب الإسلامية المعترف به . وهو ما تم الأخذ به والتعامل على أساسه في الأزهر وفي مجمع

البحوث الإسلامية . وفي خط مواز لذلك فإن وزارة الأوقاف المصرية طبعت كتاب «المختصر النافع في فقه الإمامية» - (على اعتبار أن الإمامة عند الشيعة من أركان الاعتقاد) .

تأزمت العلاقات بين طهران والقاهرة في أواخر الخمسينيات ، وتدورت حتى قطعت سنة ١٩٦٠ ، أثناء حكم الرئيس جمال عبد الناصر . وكان سبب الأزمة هو تعارض المصالح السياسية ، مثلاً في علاقة نظام الشاه بإسرائيل من ناحية ، ودور طهران في مشروعات الأحلاف الغربية التي كانت تنسجها القوى الكبرى ضد مصر ، للضغط عليها وتطويق حركتها ، من ناحية أخرى ، وهي النقطة التي اشرنا إليها قبل قليل .

أحدث ذلك التدهور صدمة السلبية في مجرى العلاقات بين البلدين ، وامتد ذلك الأثر إلى حركة التقارب ، الأمر الذي أدى إلى شبه تجميد لنشاط الدار ، ووقف صدور مجلة رسالة الإسلام في عام ١٩٦٤م .

ظلت العلاقات مقطوعة طيلة عشر سنوات تقريباً ، ثم أعيدت في شهر أغسطس ٧٠ ، قبل شهر واحد من وفاة الرئيس عبد الناصر . لكن المرحلة السادسة شهدت ازدهاراً في علاقات القاهرة وطهران ، فاضافة إلى الزيارات المتبادلة بين كبار المسؤولين هنا وهناك ، فقد شكلت سنة ٧٤ لجنة وزارية مشتركة للتعاون الاقتصادي بين البلدين ، وقعت اتفاقية لتعاون موسع يتم بموجبه استثمار مبلغ ٨٥٠

مليون دولار لاعمار المناطق التي تضررت من الحرب في مصر . ضمن هذه الاتفاقية ادرجت عدة مشروعات للبناء والهندسة ، وصناعة الأسمدة والغاز ، وتمديد أنابيب البترول من السويس إلى بور سعيد لشحنها إلى أوروبا . وتقرر في هذا الصدد إنشاء بنك « مصر إيران » لتمويل تلك المشروعات .

اسفر الاجتماع الثاني للجنة التعاون الاقتصادي بين البلدين اتفاق الجانبان على تأسيس غرفة تجارية مشتركة ، وزيادة رأس المال شركة الملاحة الإيرانية المصرية إلى ثلاثة ملايين دولار ، وتذليل مختلف الصعوبات التي واجهت تنفيذ المشروعات الأخرى التي سبق الاتفاق عليها .

كانت نتيجة ذلك أن بلغت قيمة الصادرات الإيرانية إلى مصر سنة ١٩٧٤م ، حوالي ٦٨٣ مليون ريال إيراني ، فيما كانت واردات إيران من مصر في نفس الفترة أقل من عشر صادراتها إلى مصر ( ٦٤,٥ مليون ريال ) .

وبلغت قيمة صادرات إيران لمصر في سنة ١٩٧٥ ، خلال الأشهر التسع الأولى ، ٧٨٩ مليون ريال ، بينما كانت قيمة الواردات من مصر في ذات الحدود تقربياً ( حوالي ٦٥ مليون ريال )<sup>(٢٧)</sup> .

من ناحية أخرى ، كان البلدان قد وقعاً اتفاقية ثقافية بينهما سنة ١٩٥٨م ، وعند التوقيع قال على أصغر حكمت وزير خارجية إيران آنذاك : سوف تذكر شعوب العالم من خلال التوقيع على هذه

الاتفاقية ان شجيرة المودة والأخوة التي زرعت ورويت باهتمام المفكرين العظام في البلدين منذ قرون بعيدة ، اصبحت اليوم شجرة خضراء متفرعة الأغصان ، يتمكن الجميع من المتعة بثارها الطيبة ». حال انقطاع العلاقات الثقافية دون تنفيذ الاتفاقية ، ولكن وزير الخارجية المصري السيد محمود رياض زار طهران في ربيع ١٩٧١ ، وتم خلال زيارته تبادل وثائق الاتفاقية ، التي وضعت موضع التنفيذ في العام التالي .

وخلال حرب أكتوبر ٧٣ قدمت إيران كميات كبيرة من الإمدادات الطبية والعلاجية وبعد الحرب سافر فوج من الضباط وصف الضباط الذين أصيبوا أثناء القتال لتلقى العلاج في طهران ، وعادوا في ديسمبر ٧٤ .

لم يستمر «شهر العسل» طويلاً ، لأن قيام الثورة الإسلامية في سنة ٧٩ ، ولجوء الشاه إلى مصر ووقف الرئيس السادات في صفة ، كان سبباً في احداث قطيعة بين البلدين ، تعمقت بصورة أكبر حين انحازت مصر إلى جانب العراق في حربها ضد إيران .

وكانت تلك القطيعة سبباً في وقف مختلف صور التعاون الصناعي والاقتصادي والثقافي بين البلدين . بل كانت سبباً في وقف نشاط دار التقرير بين المذاهب . فاغلق الدار ووضع مقرها تحت حراسة الشرطة ، وهاجر الشيخ القمي إلى باريس ، التي بقي فيها حزيناً ومحبطاً إلى أن وفاته الأجل هناك في سنة ٩٠ .

الخيط الوحدى الذى لم ينقطع رغم تصاعد الأزمة وحدتها ، هو الجهد العلمى الذى واصله أساتذة الدراسات الفارسية في الجامعات المصرية ، وظل هذا الجهد هو الجهد المتواضع الباقى في بحثى العلاقات المصرية الإيرانية

### الفارسية في الشارع المصرى

للدقى نقول إن ثمة خيوطاً أخرى لم تنقطع ، لأنها كانت في القاع ولنست على السطح . أعني أنها كانت داخلة في نسيج الخطاب المصرى ، ولم يكن بمقدور عوامل الشد والجذب السياسى أن تؤثر فيها ، ولأنها غدت الفاظاً سرت على ألسنة الناس وامتلاها شعبية يتداولونها فيما بينهم ، فقد خرجمت عن سلطان أى حاكم ، منها أوهى من القدرة والهيمنان .

وإذا قيل إن ٤٠٪ من المفردات الفارسية هي عربية في الأساس ، عبرت على جسر الإسلام واستقرت تحت مظلته ، فإن الكلمات الفارسية مررت فوق ذات الجسر . وشاعت على اللسان المصرى والعربى<sup>(٢٨)</sup> .

ففي الطعام ثمة أسماء وأصناف فارسية مثل : بقلاؤه ، واصلها في الفارسية « باقلاؤا » - « خشاف » ، كلمة فارسية هي « خوشاب » بمعنى طازج وممتلىء بالماء الرطب . وهي اسم لنوع من الشراب الحلو يوضع فيه النقل والفاكهة المحففة . والكلمة الفارسية مركبة من

« خوش » بمعنى حلو « وآب » بمعنى ماء - « بالوطة » اصلها في الفارسية « باللودة » ومعناها المصفي والمنقى ، وهي نوع من الحلوي - « زلابية » وأصلها الفارسية « زلوبیا » - باذنجان كلمة فارسية هي « باتنکان » - « بقساط » اصلها الفارسي « بکسات » - « شوربة » مأخوذه من الكلمة الفارسية « شوربا » أو « شوروا » - كباب ، كلمة فارسية تطلق على اللحم المشوى - « كفتة » كلمة بنفس المعنى في الفارسية ، وكذلك « کشك » ، الذي هو الطعام المصنوع من الدقيق واللبن - « طرشی » مأخوذه من الكلمة الفارسية « ترشی » ، وهي الاطعمة التي فيها حموضة - « الطاجن » اصله « طه جن » ( ارز باللحمة ) - « أوزی » هو الخروف المشوى .

في المنسوجات والمصنوعات كلمات أخرى فارسية مثل : « بفتة » نوع من القماش - « وبوجهه » ، اصلها في الفارسية « بوجهه » وهي المنديل الكبير الذي توضع فيه مختلف الأغراض - « وبيجامة » اصلها « باجامة » أو « بیجامه » بمعنى السروال - جوخ ( نوع من الصوف ) اصلها « جوخره » - ودبارة ، بنفس المعنى في الفارسية - « سروال » اصلها شلوار - شال وشراب ( جورب ) كلمتان فارسيتان - شوال مأخوذه من الكلمة الفارسية جوال أو جوبال وهو الكيس الخشن - طربوش مأخوذه من الكلمة الفارسية « سرپوش » بمعنى غطاء الرأس ، سر معناها رأس وبوش معناها لباس أو غطاء - « فوطة » هي في الأصل الفارسي « فوته » وهي المنشفة - « قفطان » مأخوذه من الكلمة

الفارسية « خفتان » - « كمر » و « كليم » و « كنار » كلمات فارسية بنفس المعنى الشائع في العامية المصرية - « ياقه » مأخوذه من الكلمة الفارسية « يخة » أو « يقه » بمعنى قبة القميص .

« ابريق » أصلها الفارسي « ابرىء » - « آنزم » أصلها « آبزم » وهو الجزء المرتفع من السرج - « اسطوانه » أصلها « استوانة » - « برواز » أصلها « بروز » ومعناها الحاشية - جاروف » مأخوذه من الكلمة الفارسية « جاروب » - « جنزير » أصلها « زنجير » - « دبوس » « ورف » « وشمعدان » وطاسة » كلها كلمات فارسية بنفس المعنى - « سبت » أصلها « سبد » « شاكوش » مأخوذه من الكلمة الفارسية « جا كوج » - « شنطة » أصلها « جنته » « وطشت » أصلها « تشت » - فنجان أصلها « بنكان » « وكباية » مأخوذه من الكلمة الفارسية « كب » و « كنكه » مأخوذه من « تنك » و « كوز » أصلها « كوزه » « وهون » من الكلمة هاون .

« طازة » أصلها « تازة » - خام وخردة وسادة ، تحمل ذات المعنى في الفارسية . ولكلكة ، أصلها في الفارسية لغو الكلام أو الهديان ، وقد دخلت العامية بلفظها ومعناها .

« أوسطى » مأخوذه من الكلمة « استاد » وعربت « استاذ » - هندسة أصلها « أندازة » - خانكة أصلها « خانکاه » وعربت إلى « خانقاه » .

« داية » و « دكان » و « دسته » و « دمل » و « سرداد »

و « وزفت » ، كلها فارسية الأصل . « سراية » اصلها « سراء » - كهربا مأْنحوذة من الكلمة الفارسية « كاهريا » - كاه بمعنى قش وربا يعني جاذب ، أي جاذب القش .

« مكوك » و « ميدان » و « مندل » و « نشان » - كلها أيضاً كلمات فارسية في الوقت ذاته فالاعداد الفارسية هي التي تستخدم في لعب الطاولة : يك ، دو ، سه ، جهار ، بنج ، شيش وهكذا .

ومن الاسماء الفارسية الشائعة في بلادنا : خورشيد (الشمس) وشاهين (الصقر) وشهبور (ابن الملك أو الأمير) - ودولت (السعادة أو الثروة) ونازك (اللطيفة) وجهات (الدنيا) وشيرين (الحلوة) من (شراب) رانده (الراکضة) .

وهناك أمثلة شائعة في المصرية والعربية هي ذاتها في الفارسية مثل : على قدر حافق مد رجليك - ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع - العجله من الشيطان - بعيد عن العين بعيد عن القلب - يد واحدة لا تصدق - الغربال الجديد له شده - الجدران لها آذان - القرد في عين أمه غزال - المركب التي يقودها اثنين تغرق - باب النجار مخلع !

وليس معروفا بالضبط ما إذا كانت هذه الأمثال انتقلت من العربية إلى الفارسية أم العكس . لكن القدر المرصود أنها جرت على ألسنة الناس في البلدين - وهو ما يهمنا في السياق الذي نحن بصدده .

## (٤) ما العمل؟

يحق لكل منا ، بعد الذى سقناه ، أن يسأل : ما العمل إذن ؟  
إذا اتفقنا على أنه ينبغي أن يكون هناك عمل ، فمن الطبيعي أن  
نناقش ماهية ذلك العمل .. لكن لكي نصل إلى هذه النقطة ينبغي أن  
نستجلـى - أولاً - أمراً آخر أظنه يشغل الجميع ، يتمثل في السؤالين  
التاليين :

هل المشروع الإيرانـي عدواني وتوسعي بطبيعته ؟  
ثم ، هل لايران أطـاعـعـ في العالم العربي ؟  
يقتضينا الأمر أن نتفق - قبل أى كلام - حول أى إيران نعني ؟  
ـ لأنـ اـيـضاـحـ هـذـاـ الجـانـبـ يـشـكـلـ عـنـصـرـاـ بـالـغـ الأـهـمـيـةـ فـيـ تـصـورـ المـوـقـفـ  
الـإـيرـانـيـ الـمـسـتـقـبـلـ ، وـ فـيـ الـعـلـاقـاتـ الـعـرـبـ الـإـيرـانـيـةـ .  
فـاـيـرانـ الـقـومـيـةـ الـعـلـمـانـيـةـ لـهـ مـشـرـوعـهاـ وـرـوـيـتهاـ ، وـاـيـرانـ الـإـسـلـامـيـةـ لـهـ  
مـشـرـوعـهاـ وـرـوـيـتهاـ الـمـغـيـرـةـ - هـنـاكـ فـرـقـ - لـابـدـ - بـيـنـ الـاثـنـيـنـ ، أـوـ يـنـبـغـيـ  
أـنـ يـكـونـ .

اـيـرانـ الـقـومـيـةـ الـعـلـمـانـيـةـ - مـثـلاـ - اـفـرـزـتـ فـيـ آـخـرـ عـهـدـهـاـ دـعـوـةـ إـلـىـ  
تـطـهـيرـ الـلـغـةـ الـفـارـسـيـةـ مـنـ الـمـفـرـدـاتـ الـعـرـبـيـةـ . وـاـيـرانـ الـإـسـلـامـيـةـ هـىـ الـتـىـ

قررت اللغة العربية لغة ثانية في البلاد ، إلزامية في مراحل التعليم ، بنص صريح في الدستور ، غير مسبوقة في بابه ، فيها نعلم .

إيران القومية العلمانية ، في أحسن فروضها ، ستتعامل مع الأمة العربية انطلاقاً من اعتبارات «حسن الجوار» والمصالح أو المنافع السياسية والاقتصادية المشتركة ، وستظل دائمًا حكومة بمعايير المصالح وموازين القوة .

أما إيران الإسلامية ، وحكم الفقهاء بالنسبة ليس الشكل الوحيد للتعبير عن الهوية الإسلامية ولا الالتزام الإسلامي ، يضيف إلى ما سبق من اعتبارات مساحة تعزز الوشائج وتضبط المطامع . أعني أن إيران الإسلامية يفترض أن تتعامل مع العالم العربي بروح الشقيق وليس فقط بروح الحار . الأمر الذي يستصحب فتح الأبواب لعلاقات أوثق بين الشعوب على الجانبين ، وينخلق في النهاية أرضية مشتركة للتواصل والتفاهم ، أقوى بكثير من تلك التي قد تتوافر في ظل إيران القومية .

هذه الأرضية المشتركة يمكن أن تشكل ضابطاً ، إذا لم يحل دون تورط أي طرف في مغامرة تهدد أمن الآخر فإنها في حدتها الأدنى تمثل إطاراً مرجعياً يمكن الاحتكام إليه في تقييم سلوك أي من الطرفين . وبغير شك ، سيكون الوضع أفضل إلى حد كبير إذا كان الالتزام بالمرجعية الإسلامية واقعاً بالنسبة للطرفين ، الإيراني والعربي ، وليس الإيراني وحده .

وسيلغ الوضع حدّ الأمثل لو كان التزام الطرفين بالمرجعية

الإسلامية صادقاً وأميّنا ، وقائماً على تمثيل حقيقى لسلوك الدولة المسلمة في الداخل والخارج .

ورغم أن تجربة الغزو العراقي للكويت نبهتنا إلى أن الوسائل والأرضية المشتركة وحدها لا تكفى في ضبط علاقات الأخوة ، إلا أن تلك التجربة ذاتها كشفت عن أهمية توفر مصداقية أي طرف في التعبير عن التزامه بتلك الوسائل ، سواء قامت عن أرضية الإخوة العربية أو الإسلامية .

على صعيد آخر ، فنحن نذهب إلى أن إيران القومية قد تكون لها من الناحية النظرية طموحات توسعية ، على الأقل في مناطق الضعف المحيطة بها ، والخليج في مقدمتها ، أو هو ما حدث في عهد الشاه ، عندما استولى على الجزر العربية الثلاث في سنة ٧١.

أما إيران الإسلامية ، فيفترض أن تكون بغير أطماء في جيرانها المسلمين ، لأن ذلك يفقدها مصداقية الإنماء الإسلامي الذي هو أساس شرعيتها . ومن هذه الزاوية فإن إيران القومية تخسر الكثير إذا ما طمعت في جيرانها . غير أن ذلك لن يحرج شرعيتها بأى معيار . هناك بعد آخر مهم في هذا الصدد هو أن إيران القومية ليست بحاجة إلى العالم العربي بينما إيران الإسلامية بحاجة حقيقة إليه . فالعالم العربي بالنسبة للأولى سوق أو منافس في إنتاج النفط أو محيط استراتيجي - غير أن الصيغة الثانية تعامل مع العالم العربي - فوق ذلك - بحسبانه معقل الأغلبية السنّية ، أي قيادة ٩٠٪ من الأمة

الإسلامية ، التي يمثل الشيعة فيها ١٠٪ فقط ، ٤٠٪ منهم في إيران ، والباقي في دول أخرى آسيوية بالدرجة الأولى ، حتى في الجانب الشيعي الذي تقف فيه إيران الإسلامية فإن أهم مقدساته في العالم العربي . سواء ما كان منها في مكة والمدينة ، أو مزاراته في العراق التي سبقت الإشارة إليها . حيث توجد هناك سبعة من أضرحة أمة الشيعة الإثنى عشر .

لهذا السبب ، فقد لا نبالغ إذا قلنا إن إيران القومية قد تعطى العالم العربي ولا تأخذ ، بينما إيران الإسلامية قد تعطى ، لكنها يقيناً تأخذ . فتفاعل الأغلبية مع الأقلية بهمها بكل تأكيد . والذين تعاملوا مع الدوائر الفقهية في إيران يستشعرون ذلك العنصر ويلمحظون أهميته . وإيران القومية لا تثريب عليها ولا حرج إن وضعت مصالحها فوق أي اعتبار ، وإن اقتضى ذلك أن تتعامل مع أعداء الأمة العربية والإسلامية ، كما حدث فيما أقامه الشاه من علاقات مع إسرائيل . ولكن إيران الإسلامية تقع في الغلط إن أقدمت على هذه الخطوة . وأمامنا نموذج لذلك الآن ، فنحن إذا صدقنا ما قيل وهو ما لا نطمئن إلى صحته تماماً - فلابد أن نلاحظ أن الطرف الإيراني لم يحرق على إقامة تلك العلاقات في العلن ، كما حدث في عهد الشاه الذي لم يتحرج في الإعلان عن علاقة تلك ، وفتح «قنصلية» للعدو في طهران .

ولا ينبغي أن يظن أننا نفضل علاقات السر على علاقات العلن ،

وإنما نحن هنا نقارن بين موقفين نسبيين ، وإن رفضناهما معاً ، وفضلنا الموقف الثالث الذي تعلنه حكومة الثورة الإسلامية .

من هذا المنطلق فإننا لا نجد محلأً للتزويف لفكرة التحالف الإسرائيلي مع ما يسمى بدول «الجوار العربي» لتطويق الأمة العربية والضغط عليها . وهي على وجه التحديد تركيا وأثيوبيا وإيران ذلك أن هذه الفكرة لا تستقيم مع الإطار الذي تتحرك فيه إيران الإسلامية «ووقف» العلاقات الذي يتبعها الالتزام به . وربما لا نستغرب إن حدث مع إيران القومية ، وقد حدث .

والذين يتحدثون عن ذلك الاحتمال ينسون أن فكرة التحالف طرحتها رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق دافيد بن جوريون ، في فترة الستينيات ، عندما كان شاه إيران في الحكم ، وله علاقاته الوطيدة بالفعل مع إسرائيل . وأغلبظن أنه لم يكن ليتردد في الدخول في حلف من ذلك النوع ، إذا ما رأى فيه مصلحة تخدم طموحه أو ترفع من مكانته لدى حلفائه .

ولكن أما وقد تغير الوضع بعد الثورة الإسلامية ، فإن إلغاء العنصر العقدي أو الأيديولوجي الذي استجده على نظام الحكم في إيران ، ووضعها ببساطة في كفة واحدة مع أثيوبيا الماركسية وتركيا العلمانية ، مثل ذلك المسلك يعد تغليطاً لا محل له . وينخرج عن إطار التصور العلمي المستقيم ، ليدخل في باب التشويه الإعلامي والكيد السياسي .

لسنا من يقولون بأن إيران القومية شريرة وأن إيران الإسلامية قدِّيسة . فالخير والشر لها وجودهما في الحالتين ، ولا عصمة لأى منها . فضلاً عن إننا لا نقابل بين قومية ليبرالية حقيقية ، وتطبيق إسلامي فاسد ، أو العكس ، وإنما المقارنة قائمة على التزام أمين بكل من الصيغتين . ونفضل الوجه الثاني - الإسلامي - ليس فقط لأنه المعبر الطبيعي عن إنتماء شعب إيران المسلم ، ولكن أيضاً لأنه بالنسبة لنا ، يوفر إطاراً مرجعياً مشتركاً يمكن الاحتكام إليه . كما سبقت الإشارة . غير أن ذلك يظل وجهاً واحداً للصورة ، يتعامل مع الكيان الإيراني ذاته . وهو كيان لا يتصرف في فراغ ، ولكنه يتعامل مع محيط مسكون له قوانينه ومعادلاته .

فعالم السبعينيات الذي احتلت فيه إيران الشاه الجزر العربية الثلاث غير عالم التسعينيات الذي نعيشه والنظام العالمي الذي يتشكل الآن لا يتحمل ولا يقبل بأسلوب المغامرات التوسيعة . (إسرائيل حالة خاصة) خصوصاً في المناطق الحساسة ، التي تعد منابع النفط نموذجاً لها . وما الصدى الذي أحدثه غزو العراق للكويت إلا درس واجب الاستيعاب من جانب أي دولة تراودها أحلام التوسيع وانتهاك الشرعية الدولية .

نعود إلى سؤالينا إذن ..

## هل المشروع الإيراني عدواني وتوسيعى بطبيعته؟

هنا نقر حقيقتين : أولاًها أن بلداً كبيراً وعرقاً مثل إيران كان دوره التاريخي أكبر من مساحته الجغرافية ، وقد أسلفنا أن وزن إيران أكبر من المضبة الإيرانية ، وأن البلد « متعدد » بطبيعته . وليس أدل على ذلك من الآثار الفارسية في اللغة والتقاليد والسلوك المتشرة في أنحاء كثيرة من آسيا والعالم العربي ، التي أشرنا إلى جانب منها في مصر.

الحقيقة الثانية : أنه يتعدّر أن توصف دولة ظروفها عادية بأنها عدوانية بالطبيعة ، فليس هناك فيما نعلم شعوب شريرة ، ولكن هناك ظروف موضوعية اجتماعية ، وسياسية ، وثقافية قد تدفع دولة إلى إنتهاج سلوك شرير وظروف أخرى تهيئ الدولة لسلوك معاكس ، متحضر وبناء .

إسرائيل لها وضع خاص - في هذا السياق لسبب بسيط هو إنها دولة عسكرية وعنصرية بطبيعتها فضلاً عن إنها مزروعة بالغصب في الجسم العربي ولها أحلامها التاريخية ، ومن المفهوم في ظل هذه التركيبة الشاذة أن يتولد مشروع عدواني وتوسيعى بالضرورة ، لأن استمراره مرهون بذلك الاعتبار . قائم إذا مادام ومنذئراً إذا تخلى عنه وتصرفت إسرائيل ككيان طبيعي ودولة عادلة . وقد مر بنا أن إيران كانت عدوانية في طور ، ومتصالحة ومهادنة في طور آخر ، وبالتالي ،

فالسؤال الصائب لا يكون عن الطبيعة الإيرانية ومدى الخير والشر فيها ، وإنما يكون عن الظروف التي توضع فيها إيران والتي تفرز تصرفاً في هذا الاتجاه أو ذاك .

فالدولة التي تطمح لأن تكون شرطى الخليج مثلاً ، لها وسائل وأهداف لابد أن تختلف عما إذا كانت الدولة متبنية – أو متنمية مشروع للنهاية الإسلامية .

### هل لإيران أطماع في العالم العربي؟

نحن مع الرأى القائل بأن إيران لها مصالح ولم يعد لها أطماع . وقد تبنى فريد هاليداي - الخبر البريطاني المعروف - هذا الرأى في آخر عهد الشاه فذكر أن إيران لم يعد لها مطامع إقليمية ، ولا مشاكل حدودية مع جيرانها . فالنزاع الحدودي مع أفغانستان تم حله ، وكذلك الحال مع العراق . إذ تكفلت إتفاقية ٧٥ وبروتوكولاتها بجسم ما كان معلقاً بين البلدين . وقبل هذا وذاك فإن الشاه كف عن المطالبة بضم البحرين منذ سنة ٧٠ ، وعندما احتل الجزر الخليجية الثلاث في سنة ٧١ ، فقد كان هذا آخر مطالبه لإيران بضم الأراضي . بعد ذلك لا تعرف دعوة إيرانية من أى نوع إزاء أى أرض عربية مجاورة .<sup>(٢٩)</sup>

على ذلك فإن عنوان المصالح يفتح الباب لاحتمالات التدخل الإيراني في شؤون الجيران لأسباب قد تتراوح بين إثارة القلاقل وتغيير الأنظمة . والحدث متواتر عن محاولة شيعية مبكرة قيل إنها كانت

مدعومة من إيران لقلب الأوضاع في البحرين ، في اعقاب ثورة ٧٩ . ذلك غير محاولات أخرى في عدد من الدول الخليجية قيل إنها تأيدت بالثورة الإيرانية أيضاً .

وعلى سبيل التفسير - لا التبرير - نذكر بأن تلك التصرفات واكبت مرحلة الانفجار والاندفاع التي أعقبت نجاح الثورة الإيرانية ، حيث سادت الفوضى التصرفات الإيرانية ولم تنضبط حدود وخطوط العلاقة بين الثورة والدولة . وتصور الشباب الإيراني آنذاك أن نجاحهم في زلزلة الطاغوت الإيراني بكل جبروته تؤهلهم لتغيير الكون وانهاض كل المستضعفين للإطاحة بعالم المستكبارين - وهي مرحلة تدل شواهد عدّة على أن الحكم الإيراني قد تجاوزها ، بل إن رموز الحكم انتقدوها في المرحلة الأخيرة .

ورغم أن أمثال تلك الأحلام لها أصل مفهوم إلا أنها نستطيع أن نستبعد عنصر الدس الذي باشرته أطراف ذات مصلحة وتطويق أي ثورة فضلاً عن الثورة الإسلامية . إذ شنت تلك الدوائر حملة عالمية لتصدير الثورة الإسلامية بحسبانها خطراً داهماً يزحف مهدداً الأنظمة والأبنية والعصر ! - وكان التخويف المبالغ فيه جزءاً من محاولة حصار الثورة وتطويقها .

لقد أشرنا إلى دور النظام الدولي الجديد في كبح جماح المغامرات التي قد تورط فيها بعض الأنظمة ضد جيرانها . لكننا نحسب أن ثمة أموراً أخرى ينبغي ألا تسقط من الاعتبار ، في ضبط علاقة إيران

بالعرب عموماً ، والخليج خصوصاً .

فن المهم مثلاً أن تقوم في الخليج دول بالمعنى الحقيقى تقنع الآخرين بمحارتها للبقاء فضلاً عن الاحترام - أعني دول لها أوضاع مؤسسية ثابتة من ناحية ، ويتمنى المواطنون فيها بحق المشاركة ، فضلاً عن المساواة من ناحية ثانية . ومسألة المساواة هذه لا تقل أهمية عن المشاركة ، لأن الشيعة في الخليج والجزيرة العربية يعانون من أوضاع سلبية عدّة ، تعكر من صفو العلاقات الإيرانية مع تلك الدول . ورغم أن أمثال تلك الأوضاع يفترض أنها شئون داخلية ينبغي أن تظل خارج مسار العلاقات الخليجية الإيرانية ، إلا أنها لا تستطيع من الناحية العملية أن تتصور إمكانية إقامة علاقات ناجحة وحميمة بين إيران ودولة أخرى تمارس اضطهاداً ضد الشيعة في داخل أراضيها . من المهم كذلك أن يكون هناك موقف عربي مسئول واع بمقتضيات الأمن العربي والتضامن الإسلامي . حتى لا تستشعر إيران أنها تواجه فراغاً عربياً حولها . وهذا الوعي قد يتطلب مثلاً إقامة نظام عربي يشكل غطاء سياسياً وعسكرياً كافياً للدول العربية . وقد يتطلب أيضاً إيجاد صيغة لعلاقات حميمية بين دول العالم العربي ودول العالم الإسلامي المحيطة بها مثل تركيا وإيران .

ونحن نذهب إلى أن الموقف العربي أثناء الحرب العراقية الإيرانية ، التي كان يعرف الجميع إنها بدأت عدواً عراقياً على إيران وإن سكروا على ذلك أو أنكروه ، هذا الموقف ، لم يتم بالمسؤولية الكافية . لأنه

كان إنحيازاً غير مبرر لمعتد ظالم ، ضد طرف إسلامي حديث الولادة وقد أدى التحيز للظلم ليس فقط إلى زيادة عناد وتصلب الإيرانيين الذين تعمق لديهم الشعور « بالظلمية » ومن ثم إطالة أمد الحرب ولكنه أدى أيضاً إلى تقلص دور التأثير العربي في المعادلة السياسية الإيرانية . ذلك أن المسرح السياسي الإيراني شأن أي مسرح سياسي ، تتحرك عليه تيارات عديدة مختلفة التوجهات والمأرب .

وكان بين هؤلاء تيار عربي بروز دورة في بداية الثورة ، غير أنه ضرب تلقائياً . ليس عمداً ، ولكن بتأثير تفاعلات سلبية الموقف العربي ، الذي بالغ أحياناً في العداء لإيران ، في غيبة القراءة المنصفة للأحداث أو تقدير داعي لاحتلالات الموقف داخل إيران وخارجها . ولا نريد أن نعنى الإيرانيين من التكليف ، إذ يظل مطلوبًا منهم الكثير لاكتساب ثقة العالم العربي واطمئنانه إلى حسن الجوار مع النظام الإيراني ، وسواء كان عدم الثقة الذي نشأ بعد الثورة راجعاً إلى أخطاء مارستها إيران بحق الدول العربية المجاورة أو إلى محاولات الدس والافتعال من جانب أية أطراف خارجية ، أو أجهزة أمنية داخلية ما انفك تتهم الإسلاميين بأنهم مواليون لإيران ، فالشاهد أن أزمة الثقة حدثت وتعمقت ببعض الوقت . ولا حل لهذه الأزمة إلا بانهاب إيران أولاً لسلوك مغاير تجاه العالم العربي ، يبتلي ذرائع الداعين إلى مخاصمتها والابتعاد عن « الشرور » الصادرة عنها .

ندرك أن الخطاب الإسلامي في إيران يثير مخاوف الأجهزة الأمنية

في العالم العربي ، وهاجسها الإسلامي ليس بحاجة إلى تدليل ، لكن تغيير السلوك الإيراني – إذا ثبت – قد يضطر تلك الأجهزة إلى تغيير موقفها من إيران فيصبح نوعاً من المذر في التعامل ، بدلاً من الإصرار على إغلاق أبواب أي تعامل معها من الأساس .

نسجل في هذا الصدد أن الجمهورية الإسلامية في إيران ، التي بدأت بتولي الثنائي خامنئي – رفسنجاني للسلطة في إعاقاب وفاة الإمام الخميني في عام ٨٩ ، لها سعيها الملحوظ في ذلك الاتجاه . لكن استعادة الثقة العربية في السلوك الإيراني إزاءها يحتاج إلى وقت . فالشيخ عميق والرواسب كثيرة على الجانبين ، بعضها ذو طابع قومي عنصري ، وبعضه ذو طابع مذهبى ، وبعضه ذو طابع أمني وسياسي . وربما كان الظرف مواطياً بشكل أفضل نسبياً بعد الغزو العراقي للكويت لأنه أثبت أن الخطر الذي يهدد الخليج ليس فارسيّاً بالضرورة ، ولكن الأنظمة الطاغوتية العربية قد تكون مصدراً لخطر أكبر – وفي هذه الحالة فقد يكون بعض «الشر» أهون من بعض ! .

ف هذا السياق تبرز لبنان كحالة خاصة للغاية تجسد الاختراق الإيراني للساحة العربية . وهي حالة خاصة أولًا لأن الوجود الإيراني في لبنان – أيًا كانت صيغته – اكتسب مشروعية منذ مرحلة مبكرة بحكم العلاقات التاريخية بين شيعة جبل عامل في لبنان والمؤسسة الشيعية في إيران ، حيث كان «للعاملين» دورهم في تشيع إيران الصفوية – وثانياً لأن أوضاع لبنان في سنوات ما بعد الحرب أعطت للآخرين

انطباعاً بأنه بلد مستباح ، بوسع أي طرف عربي أو غير عربي أن يخترقه ويمارس فيه ما يشاء من تصرفات مقبولة أو غير مقبولة .  
أخيراً هل هناك أمل أو إمكانية لصياغة علاقات عربية إيرانية  
إيجابية ؟

ردنا على ذلك أن هذه العلاقة يجب أن تقوم في نهاية المطاف ، سواء لأسباب استراتيجية أو لأسباب متعلقة بالروابط الإسلامية الضرورية . ونحن هنا نضيف أن النظام العالمي الذي يتشكل الآن في ظل الوفاق بين الدولتين الأعظم ، يصوغ في ذات الوقت نوعاً من الهيمنة على مقدرات العالم ، قد يؤدي إلى إلغاء دور وإرادة دول العالم الثالث التي يتمتع إليها الطرفان - العرب وإيران - وفضلاً عن أن الوفاق الراهن ألغى إلى حد كبير مساحة التناقض بين الدولتين العظميين ، التي كان يستفيد منها العالم الثالث أحياناً في المناورة ، دفاعاً عن مصالحه .

في هذا الظرف فإن الدول الإسلامية قد تكون في مقدمة المتضررين لأن انتهاها يربطها بمشروع إسلامي يعبر عن الهوية ، ويفترض أن يشق طريقها المتميز إلى النهضة . والهيمنة التي تتحدث عنها ليست سياسية فقط ، ولكنها حضارية بقدر أكبر .

والأمر كذلك فإن التلاقي الإيراني العربي لا تفرضه الاعتبارات الاستراتيجية والسياسية والأنجوية العاطفية فقط ، ولكنه أمر يحتمه موقف رفض الانسحاق الحضاري أمام المشروع الغربي الزاحف بقوة .

ولسنا نجد سبباً موضوعياً يحول دون السعي إلى إقامة تلك العلاقات الإيجابية المنشودة ، ولكننا نتبه إلى أنه ما لم تتوفر الإرادة المشتركة لدى الطرفين ، فلن يتحقق لذلك المسعى هدفه . فالمسئولة يتبعن أن ينهض بها العرب والإيرانيون دون تردد . ومحالات التلاقي لا حدود لها ، على الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية ، كما سرني توا .

### فض الاشتباك أولاً ما العمل إذن ؟

قبل أي شك لابد من «فض الاشتباك» بين العرب وإيران والعكس ، لتهيئة مناخ الوفاق . وبغير ذلك ، فإن طريق التفاهم أو التعاون سيظل مليئاً بالأشواك والألغام ، التي لن تتيح فرصة التقدم ، وربما «تنسف» أي محاولة للتقدم .

ولا يعني بفض الاشتباك اسكات أي صوت يجرح الآخر أو يقصف بنيانه ، فذلك مطلب مستحبيل يتعدى تحقيقه . وإنما الذي يعنيه أن تتحلى الدول المعنية أولاً ، والمؤسسات المعبرة عنها أو وثيقة الصلة بها ثانياً ، بروح الوفاق ، التي تنطلق أساساً من الاحترام المتبادل ، الذي يسعى إلى بناء المستقبل المشترك ، متتجاوزاً الماضي بكل مخلفاته وملفاتاته .

على وجه التحديد ، قمة جبهات ثلاثة على الأقل يتبعن أن يتم فض الاشتباك عليها ، لينفسح المجال أمام اللقاء المنشود ، وهذه الحالات هي :

- العلاقات السياسية .
- الانتماء المذهبي .
- النشاط الدعوي أو التبشيري .

فتجریح الأنظمة السياسية أو تهديدها بأى صورة باب ينبغي أن يغلق ، ليس فقط لأن بيوت الجميع من زجاج ، وحال المدعى ليس أفضل كثيراً من المدعى عليه ، ولكن لأن شأن كل نظام هو في اختصاص شعبه ، إن شاء قبل به ، وإن شاء رفضه أو انقلب عليه . وفي كل الأحوال ، فليس من حق طرف ثالث أن يتدخل في هذه العلاقة ، لا بالتأثير ولا بالتصدير .

ولست أشك في أن كل من الجانبين العربي والإيراني لديه الكثير الذي يمكن أن يقال في هذا الصدد ، سواء انصب على تجارب الماضي أو هواجس المستقبل .

ولئن كان حسم هذا الجانب يهم كافة الدول العربية ، إلا أنه أكثر أهمية بالنسبة للدول الخليجية ، التي من حقها أن تطمئن - مثلاً - إلى أن إيران ليست طرفاً في أي نشاط سياسي داخلي يجري على أرضها . وتلك مسئولية ينبغي أن تنهض بها إيران دون غيرها ، كما قلنا . من ناحية ثانية ، فإن الاشتباك المذهبى بدوره ينبغي أن يوقف . ولئن حملنا الطرف الإيرانى المسئولية الأكبر في الشق السياسى ، فإننا نحمل الطرف العربى ذات المسئولية في الشق المذهبى ، فشلة مدارس فكرية في العالم العربى تقوم على تجريح عقائد الشيعة واتهامهم بالكفر . وهذه المدارس

خطباء في المساجد ومتحدثون في الإذاعة والتليفزيون ومراكز توجيه وصحف ودور نشر ، كلها تبث خطاباً واحداً معادياً للشيعة ومحرضًا عليهم بكل الصور .

نعم ، هناك تراث مليء بالمرارات والمطاعن عند الجانبيين ، لكننا إذا كنا نتحدث عن أمل في المستقبل ، فلا مفر من إغلاق ملف التراث مؤقتاً ، وتعاون عقلاه الجانبي في تنقيته وتصحيحه فيما بعد .

وهي مهمة ليست يسيرة ، فليس بمقدور كائن من كان أن يزيل آثار ذلك التراث أو يلغيه ، إذ هو حصيلة خلاف تراكمت ضغافاته عبر إثنى عشر قرناً . والذى ندعوه إليه هو «تحميد» ذلك التراث مؤقتاً وتجاوزه . يشجعنا على ذلك أن ثمة عقولاً راجحة على الجانبيين مستعدة لذلك ، بل مارسته فعلاً . سواء في تجربة «التقريب» التي تمت ، أو في مشروعات التلاقي المطروحة ، من قبيل ما عرضه الشيخ محمد الغزالى في كتابه «دستور الوحدة الثقافية» ، أو ما دعا إليه الشيخ محمد مهدى شمس الدين ، نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي بلبنان في مؤتمر «الغدير» الذى عقد بلندن فى شهر يوليو ٩٠ ، وعرضناه فى حينه<sup>(٣٠)</sup> .

لا يهمنا كتابات «الآحاد» هنا وهناك من متучبى السنة أو الشيعة ، ولا يزعجنا كثيراً كتاب يصدره شاب تونسى من أهل السنة تحول إلى التشيع . فكتب تجربته تحت عنوان استفزازي هو : ثم اهتديت ١ - أو كتب يبادر إلى تأليفها بعض راكبي «الموجة» في بلاد

العرب أو في الهند كان كل هما هو إخراج الشيعة من الملة .  
الذى يهمنا هو موقف المؤسسات التى أشرنا إليها ، التى نذهب إلى  
إنها إذا اختارت الموقف الصحيح فإنها ستقود السفينة إلى بر الأمان  
بإذن الله وعونه وتوفيقه .

في هذا الصدد لابد أن نحمد للحكومة الإيرانية أنها طبعت كتب  
التربية الدينية والثقافة الإسلامية ، التى توزع على طلاب المدارس ،  
وخلصتها من كافة الشوائب التى حفلت بها كتب التراث ، خصوصاً  
تلك التى تخرج الخلفاء الراشدين أو صحابة رسول الله ، وهو ما  
عرضناه مفصلاً في كتابنا «إيران من الداخل»<sup>(٢١)</sup> .

لقد كان هذا موقفاً إيجابياً ومسئولاً ، لم يغير مما فات حقاً ، لكنه  
شق بحري جديداً باتجاه المستقبل - أدبياته اليوم هي تراث الغد .  
إن الحرب المعلنة والخفية ، المباشرة وغير المباشرة ، بين الوهابية  
والسلفيين عموماً ، وبين الشيعة ينبغي أن يوضع لها حد وأن توقف ،  
على الأقل من على المنابر العامة ومن لغة المؤسسات والمنظomas التي تلقى  
دعمًا من جانب بعض الحكومات العربية . وبغير إنجاز هذه الخطوة ،  
فإن أجواء التسميم ستظل مستمرة ، وأجواء الوفاق ستظل محجوبة .  
من ناحية أخرى ، فإن الأزهر الذى عهدناه منارة لكل  
المسلمين ، وداعياً للوفاق والتقارب بين مذاهبهم فى الأربعينيات ،  
ليس مقبولاً أن يقف في التسعينيات موقف المحايد غير المعنى بتلك  
الحرب الضروس ، الذى تردد أصواتها في أنحاء مختلفة في أفريقيا

وآسيا ، بل وفي أوروبا والأمريكتين !

على صعيد ثالث فإن الاشتباك الحاصل بين الدعاة الشيعة والسنّة ينبغي أيضاً أن يوقف . بوجه أخص ، فإن الدعاة الشيعة الذين يتحركون بهمة ملحوظة في أرجاء العالم الإسلامي منذ قيام الثورة الإسلامية في سنة ١٩٧٩ ، ينبغي يوقفوا نشاطهم في المجتمعات السنّية ، وأن يوجهوا طاقتهم إلى غيرهم . وقبل ذلك فإن الضغوط التي يمارسها أولئك الدعاة في محيط السنّة الإيرانية أنفسهم ، الأكراد والبلوش ، يجب أيضاً أن توقف بغير تردد وبمنتهى الحسم .

ونحن نفهم أن الأطراف التي تعمل في هذا المجال عديدة ومختلفة ، وأنهم ليسوا جميعاً خاضعين لنفوذ السلطة الإيرانية ، فالمراجع الكبير في قم لهم استقلالهم عن الدولة . ولكل منهم نشاطاته ومقلدوه في داخل إيران وخارجها ، فضلاً عن الأنشطة الشيعية ليست كلها مركزة في إيران ، وإنما ثمة نشاطات مصدرها النجف الأشرف في العراق وأخرى صادرة عن لبنان ، وهناك نشاطات أخرى تمارسها القيادات الشيعية في كل من الهند وباكستان .

ذلك نفهمه وقدره ، لكننا نذهب إلى أن تحديد موقف واضح من هذا الموضوع من جانب «مرشد الثورة الإسلامية» مثلاً ، يمكن أن يزيل لبساً كثيراً في هذا الجانب . ثم إن اتخاذ خطوة عملية أخرى على هذا الدرب ، بوقف نشاطات الدعاة الشيعة وسط المجتمعات

السنّة داخل إيران ، ستُصبح بمثابة إثبات لحسن النية لا ينقصه الدليل .

فضلاً عن هذا وذاك ، فإن استجلاب الشباب المستمى إلى مجتمعات سنّية أفريقية أو آسيوية ، والحاقة به بالجواز العلمية في قم ، أو بجامعة الإمام جعفر الصادق في طهران ، ينبغي أن يعاد النظر فيه ، بحيث لا يصبح محاولة لتوسيع نطاق التشيع في بعض تلك المجتمعات ، أو لاختراق المجتمعات سنّية مغلقة في حالات أخرى . كما حدث في أوغندا مثلاً ، التي زارها أحد الدعاة الشيعة قبل سنوات ، وأبلغ مسلميها السنّة بأن ثمة منحًا دراسية للتعليم الإسلامي معروضة لمن يشاء مواصلة دراسته . وعندما وصل الشباب الأوغندي إلى «قم» ، اكتشفوا أنهم استقدموا لدراسة المذهب الشيعي ، مما أوقعهم في مشكلة لا أعرف كيف خرجوا منها ، وهم القراء الذين لم يكونوا يملكون بطاقة السفر للعودة إلى بلادهم .

إن حسم هذه الأمور هو مما تملكه القيادة الإيرانية . وإثبات موقف من هذا القبيل كفيل بفتح صفحة من التعاون المخلص بين رموز الجانبين ، السنة والشيعة . فإذا كان قد دعونا إلى الاحترام المتبادل بين الأنظمة السياسية ، فلأولى بنا أن ندعوا إلى احترام مماثل للجماعتين المذهبيتين .

ربما ساعدت مبادرات أهل السنة إلى خلق الأجواء الحميمة المطلوبة ، عن طريق وقف حيالاتهم على عقائد الشيعة ، باعتبار أن

الأغلبية تحمل المسئولية الأكبر ، وهذا ما نتمناه حقاً . لكننا في الوقت ذاته نرى أن ثمة وجاهه في مطالبة الشيعة بتحرك لا يتظر مبادرات غيرهم ، لأنهم في إيران سلطة تحكم ، وتنطليع إلى إقامة تجربة إسلامية رائدة .

### نحو ميثاق لعدم الاعتداء

هذا الذي قلناه في الدعوة إلى فض الاشتباك ، هو في جوهره مطالبة بالامتناع عن فعل ، يفترض أن يهيء روح الوفاق ، التي من شأنها أن تمهد السبيل لفعل أو أفعال من شأنها أن تحقق المصلحة المشتركة المنشودة . إن روح الوفاق ، وإرادة التعاون المشترك إذا توفرتا ، ثمة مجالات سبعة - على الأقل - يمكن أن يلتقي فيها الإيرانيون والعرب على الفور . وهذه المجالات هي :

- ١ - القضية الفلسطينية ، بمحظوظ عناصرها في الداخل والخارج .
- ٢ - العمل الإسلامي العام ، من خلال منظمة المؤتمر الإسلامي .
- ٣ - التقارب بين المذاهب الإسلامية .
- ٤ - عالم المستضعفين في دول عدم الانحياز .
- ٥ - أمن الخليج ، وهو الموضوع الذي أثاره الغزو بشدة ، حتى افتتح الحديث حول ترتيبات الأمن في تلك المنطقة .
- ٦ - التعاون الاقتصادي ، وموضوع النفط في المقدمة منه (إنتاجه وأسعاره) .
- ٧ - التعاون الثقافي ، الذي يشمل الكتب والفنون وتبادل الأساتذة في الجامعات وغير ذلك .

هذه مجرد عناوين يمكن أن يندرج تحت كل واحد منها عديد من النقاط

والبنود ، وربما كانت هناك مجالات أخرى يمكن أن يشملها التعاون إذا انفتح بابه ، مثل حوار الشمال والجنوب ، قضية البيئة والتلوث أو ما إلى ذلك .

إن مصر هي الطرف المؤهل والمفترض لقيادة تلك المسيرة ، وزتها وسجلها يوفران ذلك التأهيل بجدارة . وإذا كانت قد تورطت في المرحلة السادسة في خصومة غير مبررة ضد إيران وتنازلت عن دورها ، فهى الآن في وضع مغاير يمكنها من أن تنفصل عن كاھلها ذلك الوزر ، لتتصرف بمستوى مسؤوليتها التاريخية باعتبارها «كبير الأسرة العربية» ، وولفًا لما تقتضيه المصالح الاستراتيجية للأمة العربية ، التي هي جزء من الأمة الإسلامية .

ولن تستطيع مصر أن تنهض بهذه المسئولية ما لم تبن سياستها وتقديراتها على أساس الحسابات الكبيرة ، وليس الحسابات الصغيرة ، أعني تلك التي تحسب لمستقبل الأمة ، لا تلك التي تتأثر بتقارير أجهزة الأمن ، مثلاً . ولدى مصر الكثير من القدرة والخبرة ، الذي تستطيع أن تقدمه في مختلف المجالات التي عدناها . ولن فتحت باباً ، فستنفتح أمامها تلقائياً بقية الأبواب الأخرى .

وإذا جاز لنا أن نقترح مساراً موازياً لثبت الوفاق العربي الإيراني ، فإن لدينا اقتراحًا عملياً للساحة الخليجية ، التي هي الأقرب جغرافياً من إيران ، وأكثر أجزاء الوطن العربي حساسية وتوجساً من نشاطاتها ، خصوصاً وأن في الخبرة التاريخية لهذه المنطقة ما يعزز هواجسها ومخاوفها .

نقترح بشكل محدد توقيع ميثاق عدم اعتداء أو حسن جوار بين دول مجلس التعاون الخليجي وإيران - وفي ظل هذا الميثاق يبرم اتفاق أو معاهدة للتعاون الاقتصادي والفنى والتجارى ، يمكن أن يتبع عنه أو ترتب عليه عدة

اتفاقيات تخصصية ، تنظم التعاون في كل مجال على حدة . ولو أنشأ اتفاق التعاون مجلساً وزارياً مشتركاً ، يمثل فيه الطرفان مجلس التعاون الخليجي والحكومة الإيرانية ، تكون له اجتماعات دورية ، كل ستة أشهر أو سنة ، فإنه قد يشكل ساحة مناسبة للحوار والتفاهم حول عديد من الأمور التي تعكر صفو العلاقات ، من الأمان إلى الحج ، إلى مسألة الجزر الثلاث التي إن لم تسو بالتراضي ، فسبيل حلها بالتحكيم الدولي مفتوح . إن توقيع ميثاق عدم الاعتداء أو حسن الجوار بين إيران ورؤساء الدول الأعضاء في مجلس التعاون الخليجي ، يغلق الباب تماماً أمام مختلف الهواجس والمخاوف – أما اتفاق التعاون المقترن ، فإنه يفتح باباً آخر واسعاً للسعى في تحقيق المصالح المشتركة ، ويؤدي في النهاية – وبالضرورة – إلى تنشيط مجرى العلاقات العربية الإيرانية .

- إننا إذا دفينا جيداً في الفكرة ، فسنجد أن ثمة إيجابيات عشر – على الأقل – يمكن أن يتحققها ذلك الاتفاق ، تتمثل فيما يلي :
- ١ - تنسيق وحشد الإمكانيات والطاقات العربية/ الإيرانية لصالحة العمل الإسلامي المشترك والشعوب الإسلامية .
  - ٢ - إزالة أي احتلالات مواجهة عربية/ إيرانية في المستقبل ، ومنع القوى الأجنبية المعادية للإسلام من استغلال أي خلافات أو إثارة أي تناقضات بين الجانبين كما حدث من قبل .
  - ٣ - زيادة القواسم المشتركة التي تجمع بين العرب وإيران ، واحتزاز أي عوامل للاختلاف بينهما ، استناداً للانتماء الإسلامي المشترك .
  - ٤ - وضع الثقل الإيراني في كافة المواجهة العربية/ الإسرائيلية المصيرية والذي يمثل إضافة هامة للجانب العربي والإسلامي فيها .

- ٥ - الحيلولة دون قيام تحالف أو تنسق أو تفاهم إيراني/ عراقي حول السيطرة أو توزيع النفوذ بينهما في منطقة الخليج ، وفي الوقت ذاته استئثار الموقف الإيراني الإيجابي الواضح من الأطعاء التوسعية العراقية في الكويت والخليج بوجه عام ، والذى يتمثل فى الرفض القاطع لهذا العدوان وأهدافه الطموحة في المنطقة .
- ٦ - تحجيم الخلاف التاريخي بين السنة والشيعة ، ووضعه في إطاره الصحيح ، وحصره في نطاق المعالجة الفكرية والفقهية ، وإيجاد أرضية صالحة للتعايش بين المذهبين ، على أساس من الفهم الموضوعى والاحترام والتقرير .
- ٧ - الحد من أطعاء وتدخل القوى الأجنبية في المنطقة ، سواء على الصعيد العسكري (الأمني) أو الاقتصادي ، بل الفراغ الاستراتيجي وإزالة ذرائع التدخل وتأمين مصادر النفط ذات الأهمية الاقتصادية القصوى للاستقرار العالمي .
- ٨ - الاستفادة من النتائج الإيجابية الممكنة لقيام تعاون وتكامل اقتصادى إقليمى بين العرب وإيران .
- ٩ - ترويض التزعع القومية الإيرانية أو العربية الضيقة وإحلال الإنماء الإسلامي محلها ، واستئثار الميل الإيراني الطبيعي للثقافة الإسلامية واللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ، مما يساعد على انتشارها بين الإيرانيين ، وتهيئة المناخ لحدوث تجانس ثقافي واجتماعي بين العرب وإيران لمصلحة الأمة الإسلامية في الحاضر والمستقبل .
- ١٠ - الاستفادة من المدخل الإيراني في العمل على إيجاد عمق استراتيجى إسلامى للتعاون العربى ، وبناء جسور دائمة ومتينة للعلاقات بين الدول

العربية والإسلامية ، باعتبارهما يتميzan معاً إلى الأمة الإسلامية الواحدة ، ومن شأن ذلك أن يساعد على تحقيق نتائج باهرة في المستقبل في مختلف مجالات التعاون لمصلحة هذه الدول كافة ، بالاستفادة القصوى من الموارد والإمكانيات الضخمة المتاحة للدول الإسلامية في مجموعها ، سواء على صعيد التعاون والتكامل الاقتصادي أو الاجتماعي أو الفني أو العسكري ، لمصلحة قضيابها وأهدافها المشتركة ، ومع الأخذ في الاعتبار بما حققته كثير من الدول الإسلامية من تقدم على مختلف الأصعدة ، وما تتمتع به من ثقل بشري ، وما تمثله من امتداد وتنوع واتصال جغرافي .

إن مبادرة من هذا النوع قضية لا تختمل الانتظار . فالدنيا تحرك بسرعة ، والعالم يتحسس أسباب الأمان والتلاقي ويركض نحوها بغير تردد ، دون أن ينتظر أحد أحداً . إذ لا مكان في المستقبل للشراذم والكيانات الصغيرة ، ناهيك عن أصحاب الخصومات الصغيرة المسؤولين في أوهام الخوف أو سلفات التاريخ .

إن ثمة مهاماً كثيرة وملحة في الحاضر والمستقبل يرجى إنجازها ، بل ينبغي إنجازها ، لأننا إزاء الذي يجري حولنا ، صرنا مخربين بين أن تكون أو لا تكون . ولکي تكون ، لکي نحمي الديار والكيان والهوية ، فليس أمامنا سوى طريق واحد يتعين المضي فيه . وما رحلتنا التي قطعناها في هذه الدراسة إلا محاولة للتقدم على ذلك الطريق .

ونحن لسنا مطالبين بأكثر من النية الخالصة والسعى الجاد .  
أما التوفيق والسداد فمن الله وحده .

هل من عجيب أو مبادر ٩٩

## المصادر

- ١ - نشرة «الموجز عن إيران» التي تصدر في لندن - عدد أول نوفمبر ١٩٩٠ .
- ٢ - التقرير كتبه «دور جولد» في صحيفة «الجيزواليم بوست» - عدد ٨ أغسطس ١٩٩٠ م.
- ٣ - التقرير نشرته صحيفة «الحياة» اللندنية - عدد ٢٦ سبتمبر ١٩٩٠ .
- ٤ - صحيفة «ميلايت» التركية - عدد ٢٦ أكتوبر ١٩٩٠ .
- ٥ - المقال نشر في صحيفة الحياة (عدد ١٤ أكتوبر) ، وكاتبها هو الأستاذ وليد عربة المحاضر بمعهد العلاقات الدولية بباريس .
- ٦ - في نماذج المؤلفات التي تبنت ذلك الاتجاه كتاب نقولا فونزل «الصراع العراقي - الإيراني» ، وكتاب عماد رعوف وآخرين «الصراع العراقي - الفارسي» . الأول صدر في باريس بعد الحرب (٨١ م) ، بينما صدر الثاني في بغداد سنة ٨٣ م .
- ٧ - من حوار شخصى جرى مع الدكتور على شمس الدين اركانى نائب وزير الطاقة الإيرانى .
- ٨ - آية الله مرتضى المطهرى - الإسلام وإيران - من مطبوعات منظمة الإعلام الإسلامي بطهران - جد ١ ص ٩٠ ، فصل بعنوان «دخول الإسلام إلى قلوب الفرس» .
- ٩ - د. عبد النعيم حسين «إيران وال伊拉克 في العصر السلجوق» ص ٧ .
- ١٠ - إحسان طبرى - المجتمع الإيراني في عهد رضا شاه - ص ١٠٠ .
- ١١ - فهمي هويدى - إيران من الداخل - ص ٣٧٥ .

- ١٢ - د. فاضل رسول - العراق وإيران ، عوامل وأبعاد الصراع ص ٤١ .
- ١٣ - دعا مركز دراسات الوحدة العربية إلى ندوتين لمناقشة الموضوع إحداها حول القومية العربية والإسلام ، في بيروت سنة ١٩٨٠ والثانية حول الحوار القومي الديني في القاهرة سنة ٨٩ ومن أهم الكتب التي صدرت في الموضوع كتابعروبة والإسلام للدكتور عصمت سيف الدولة ، ديني الإسلام والعروبة للمستشار طارق البشري .
- ١٤ - حسن العلوى - الشيعة والدولة القومية في العراق - ص ٤٣ .
- ١٥ - هويدى مرجع سابق ص ٥٨ .
- ١٦ - فاضل رسول - مرجع سابق ص ١٢ .
- ١٧ - فاضل رسول - هكذا تكلم على شريعتى - بعنوان التشيع العلوى والتشيع الصفوى ص ١٧٧ .
- ١٨ - فريد هوليداي - مقدمات الثورة في إيران ص ٧٥ - ٨٠ .
- ١٩ - محمد حسين هيكل - مدافع آيات الله - ص ١٣٥ وما بعدها .
- ٢٠ - هيكل - مرجع سابق - ص ١٥٠ .
- ٢١ - د. فاضل رسول - العراق وإيران - ص ٤٢ .
- ٢٢ - فريد هوليداي - مرجع سابق - ص ٣٥١ .
- ٢٣ - ملف العلاقات الإيرانية المصرية - دراسة نشرتها «الموجز عن إيران» عدد يوليو . ٩٠
- ٢٤ - الصلات الثقافية بين مصر وإيران (مجموعة دراسات) ص ١٤٦ وما بعدها .
- ٢٥ - د. محمد السعيد جمال الدين - بحث بعنوان «الشيخ محمد عبده والثقافة الفارسية» - ضمن كتاب الصلات الثقافية - ص ٣٠٩ .
- ٢٦ - ملف العلاقات الإيرانية المصرفية - مرجع سابق .
- ٢٧ - ملف العلاقات - الجزء الثاني - عدد أغسطس ٩٠ ، في نشرة «الموجز» .
- ٢٨ - د. محمد نور الدين عبد المنعم - الألفاظ الفارسية في العامية المصرية - ص ٢١٧

- فصل في كتاب «الصلات الثقافية».
- ٢٩ - مقدمات الثورة في إيران - مرجع سابق ص ٣٤٨.
- ٣٠ - مقال في جريدة الأهرام بعنوان : حوار مثير في لندن - الوحدة قبل الامامة عدد ٣١ يوليو ٩٠.
- ٣١ - «إيران من الداخل» - دراسة ميدانية لكتب ما بعد الثورة - ص ٣٢٩ وما بعدها.

## المحتويات

٥	.....	تقديم
٩	.....	١ - استدعاء بأمر الغزو
١٥	.....	الشرق الأوسط وأعمدته الثلاثة
١٩	.....	تركيا وإيران : المتنمى واللامتنمى
٢٧	.....	التاريخ حمّال أوجه : ليكن !
٣٢	.....	٢ - مفاتيح المشكلة : الوهم والحقيقة
٣٧	.....	الذى تعنيه إيران لأمة العرب
٤٢	.....	أين تكمن الاشكالية ؟
٤٢	.....	(أ) عرب وفرس : الإسلام حل المشكلة
٥٠	.....	(ب) العربية والإسلام : معركة وهية
٥٢	.....	(ج) السنة والشيعة : الفرض المستحيل
٥٤	.....	(د) حسابات المصالح ودور الاستعمار
٧٠	.....	٣ - مصر : شهادة التاريخ والواقع
٧٤	.....	مؤشرات المد والجزر
٧٩	.....	الفارسية في الشارع المصرى

٨٣ .....	٤ - ما العمل ؟
٨٩ .....	هل المشروع الإيراني عدواني بطبيعته ؟
٩٠ .....	هل إيران أطماع في الخليج ؟
٩٦ .....	فض الاشتباك أولاً
١٠٢ .....	نحو ميثاق لعدم الاعتداء
١٠٧ .....	المصادر ..

رقم الإيداع : ١٩٩٤/٩٦٦٥  
الرقم الدولي : ٩٧٧ - ٣ - ٠٠٧٧ - ٠٩ - ٩٧٧

## مطبوع الشروق

العنوان: ١٦ شارع جواد حسون - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤  
مطبوعات: ص ب: ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

# العَرَبُ وإِيْرَانُ

وهم المصراع وهم الوفاق

ل الحديث من أي نوع عن الوفاق الإيراني العربي ، إذ كان الرئيس العراقي الذي بادر من جانبه باعلان الحرب على إيران سنة ٨٠ ، قد أوهم العرب بأنه يدافع عنهم ، وأن هذه معركتهم التي شاء قدره أن يخوضها نيابة عنهم . ولم يكن هذا هو أغرب ما في الأمر ، لأن الأغرب هو أن الآخرين صدقوا وشايغوا وساندوا !

كان هي في كتاب «إيران من الداخل» هو تمكين القارئ من محاولة فهم الذي يحدث في إيران بمنهج مختلف عن لغة الخطاب الذي ساد آنذاك ، وبلغة غير التي فرضها «الخط» المرسوم . ورغم أن هذه كانت دعوة الكتاب الأساسية ، فإن مجرد صدوره سبب مشكلات عديدة ، لي وله .

وهذا الكتاب هو «الفصل الناقد» أو هو التكملة التي كانت مؤجلة من الكتاب الأول «إيران من الداخل» .

ثمة مسلمات كثيرة ما زالت موضوع جدل و محل «اجتهد» في الزمن العربي ، ليس فقط من جانب أهل السياسة ولكن أيضاً من لدن أهل الفكر والرأي . ومسألة العلاقات العربية الإيرانية نموذج لذلك الخلل الذي ندعوه . إذ ظل الملف مغلقاً طيلة سنوات عشر على الأقل (من سنة ٨٠ إلى ٩٠) ، وكان مجرد الحديث عنه أو الاقتراب منه عملاً محظوراً أو مشبوهاً . والذى أعنيه بطبيعة الحال هو الحديث المجرد من الهوى النابع من مصلحة الملة والأمة القاصد وجه الله وحده . أما حديث الميل مع الريع والالتزام «بالخط» والمزايدة عليه ، «فالحرية» فيه مكفولة ومطلقة ، حيث لكل صاحب صوت أن يتهم كيفما شاء ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً !

لى جهد سابق في هذا المجال كان دون طموح هذا الكتاب وغايته . فعندما صدر لى في عام ١٩٨٧ كتاب «إيران من الداخل» ، كان المناخ غير مهيأ

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جراد حسني - مالك : ٣٩٢٤٥٧٨ - ٣٩٢٤٨١٤  
لبنان : م.ب : ٨٠٦٦ - مالك : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٧٧٦٥ - ٨١٢٢١٣

**To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)**